الحِسُّ الصَّوتيُّ عندَ العربِ

Araplarda Ses Algılaması

Sound intuition of Arabs

د. محمد خالد الرهاوي

Dr. Mohammad Khaled Al-Rhawi

Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences, Qatar University, 2713, Doha, Qatar.

rahawi@qu.edu.qa

ORCID=0000-0002-5957-1145

DOI: 10.34085/buifd.1061803

الملخص:

يتناول البحث الحس الصوتي عند العرب؛ بدأ بالحديث عن الدراسات السابقة، ثم قدَّم للبحث بمقدمة عامة عن أثر الصوت، تبعتها أربعة مطالب: الأول عرض مفهوم الحس الصوتي وتربيته، والثاني تحدث عن مستويات الحس الصوتي: مستوى الحركة ومستوى الحرف ومستوى الكلمة ومستوى التركيب، والمطلب الثالث تحدث عن معايير الحس الصوتي، وهي المماثلة والمباينة، وحسن الوقع على السمع، والألفة والغرابة، والتناسب اللفظي، واطِّراد، والانسجام والتلاؤم، والخفة وكراهة الثقل، ثم عرض في المطلب الرابع لبعض مظاهر الحس الصوتي في بعض علوم العربية كالعروض والأصوات وفقه اللغة والبلاغة والصرف والنحو. وتأتي أهمية البحث من تناوله موضوع الحس الصوتي الذي كان اعتماد العرب عليه كبيرا قبل ولادة علوم العربية في الاستحسان والاستقباح والتصويب والفصاحة والبلاغة، كما كان له أثر كبير في ولادة تلك العلوم وكثير من مباحثها، ورغم أهميته لم يدرس دراسة وافية حتى الآن فيما اطلعتُ عليه؛ ولهذا يهدف البحث إلى إضاءة بعض جوانبه، متبعا المنهج الوصفي، ثم ختم بأبرز النتائج كإبراز وسائل تنمية الحس الصوتي والتفريق بين الحس الصوتي والوعي الصوتي، وبين الحس الصوتي والذوق، والإبانة عن مستويات الحس الصوتي عند العرب، ومعاييره، وبعض مظاهره في بعض علوم العربية، وارتباط الحس الصوتي بكثير من ظواهر العربية ومخالفة الإعراب من أجل الإيقاع والتناسب، وبكثير من مباحث علومها كالتقديم والتأخير والحذف والمطابقة، وبأصول النحو كالسماع والقياس وغير ذلك.

الكلمات المفتاحية: الحسّ، الصوت، مظاهر، معايير، السمع، العرب.

[1]A summary version of this article (i.e. %30) was presented at Instructional Technologies and Teacher Education Symposium (ITTES 2016) and published in the proceedings at https://ittes.org.tr/dosyalar/files/IttesArsivi/2016/fulltext-proceeding-ittes2016.pdf

[2] The number and date of the document received from the Ethics Committee are:
79879538/730.08.03/ & 30.04.2014. The research started in November 2015 and finished in May 2016.

Öz

Araplar arasındaki fonemik duyuyu ele alan bu araştırma, önceki çalışmalardan bahsederek başlamış, ardından araştırma sesin etkisi hakkında genel bir giriş ve dört bölümle devam etmiştir. Birinci bölüm: fonemik anlam kavramının ve yetiştirilişinin sunumu, ikinci Bölüm: fonemik duyunun seviyelerinden bahsedildi: hareket seviyesi, harf düzeyi, kelime seviyesi ve seviye Kompozisyona yer verildi. Üçüncü bölüm: Akustik duyunun benzerlik ve kontrastı, iyi etki kriterlerinden bahsedildi. İşitme, aşinalık ve yabancılık, lafzî orantılılık, tutarlılık, uyum ve uyumluluk, hafiflik ve ağırlıktan kaçınma üzerine duruldu. Dördüncü bölüm de aruz, filoloji, retorik, sarf ve nahiv gibi Arapça ilimlerinde bazı fonemik anlamın yönlerine değinildi. Araştırmanın önemi, Arapların istihsân, çirkinlik görme, tashih, fesahat ve belagat konularında, Arap ilimlerinin doğuşundan önce büyük ölçüde bağlı oldukları fonemik anlam konusunun ele alınmasından gelmektedir. Bu nedenle araştırma, betimleyici yaklaşımı izleyerek bazı yönlerini aydınlatmayı hedeflemiştir. Sonuç olarak, ses duyusunu geliştirmenin ve ses duyusu ile ses kavramı arasındaki farkındalık ve ses duyusu ile tat duyusu arasındaki farkı açıklama ve Araplar arasında ses duyusunun düzeylerini gösterme gibi en belirgin sonuçlarla sonuçlandırılmıştır. Bazı Arap ilimlerinde standartlar ve zahirelerin Arapçanın birçok fenomeni ile ilişkilendirilmesi ve ritim için sözdiziminin ihlali, ve ilimlerinin birçoğunda yer alan tekdîm, tehîr, hazf, mutabakat, işitme, kıyas vb. gibi dilbilgisi usulü belirtilmiştir.

Anahtar kelimeler: Algılama, ses, görünümler, standartlar, Araplar.

Abstract:

The research deals with the sound intuition of Arabs; It started by presenting previous studies, then it introduced the effects of sound which is followed by three requirements: the first one presents the concept of sound intuition and its upbringing. The second requirement consists of talking about the manifestation of this concept at different levels: vowels, consonants, word, and structure. The third requirement talked about the criterions of sound intuition: similarity And differences, good impact on hearing, familiarity and strangeness, verbal proportionality, coherence, harmony, and lightness. Then it briefly presented some aspects of sound intuition in Arabic grammar, including its beginning with hearing principle. Finally, it displayed the most outstanding results. As for research problem, it consists in the frequent use of the term "sound intuition" and its inference in many linguistic studies, but there isn't still any adequate research on this phenomenon. This paper treated this issue adopting the descriptive method. Then, in the fourth requirement, he presented some aspects of the phonemic sense in some Arabic sciences, such as presentations, sounds, rhetoric, morphology, and grammar. A great impact on admiration, ugliness, correction, eloquence and eloquence, a great impact on the birth of these sciences, the importance of which is no longer an adequate study, as I have seen it; The phonetic drawing, the expression, the sound, the output, the creativity, the sound, the sound production, the audio output, the directing, the reference in some Arabic sciences, the connection of the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, the letter, letter, letter, letter, letter, letter, letter, letter, letter, letter, letter alphabet**.**

Keywords: intuitin, sound, aspects, criteria, hearing, Arab.

مقدمة:

يعد النطق الوجه الآخر للعقل الذي كرَّم اللهُ به الإنسانَ، فقد خلقه عاقلا ناطقا، والنطق عند الإنسان أداة للعقل يوجهها كيفما شاء، وتتأتى أهمية النطق وحسنه من جهة تعبيره وإيقاعه وتأثيره وغير ذلك؛ ولهذا كان للصوتِ الإنسانيّ جانبان: جانب إيقاعي، وجانب وظيفي تعبيري، وقد يحقِّقُ الصوتُ أحدَهما كما هو الحال في إنشاد بعض الكلام الذي يُطرب ولا معنى تحته، وفي الكلام العادي اليومي الذي يعبر عن الاحتياجات واللوازم دون أن يكون له إيقاعٌ، وقد يجمعهما معا كما هو الحال في كثير من آيات القرآن الكريم والأشعار والأرجاز والأسجاع والإتباع والمزاوجة والخطب والأغاني وغير ذلك. ومن ثَمَّ احتلَّ الصوتُ حيّزاً مهمّاً في حياة الإنسان ولا سيما في التواصل، ولهذا احتاج من حُرِمَ سماعُهُ إلى لغة الإشارة، لكنها لا يمكن أن تكون بأهمية الصوت لافتقادها لما يجمعُه من تأثيرٍ وإيقاعٍ وإيحاءٍ وغير ذلك.

إنَّ أثر الصوت نافذ إلى الأذهان والقلوب وتحريك المشاعر وأسرها، بل ربما هو الأكثر تأثيرا من غيره مما تتلقاه الحواسُّ، وكان النطق في الإنسان جبلةً وفطرةً ميَّزه الله به من سواه، وكان كلامُ الله تعالى قرآناً وذِكْراً، ووُصِفَ بأنَّه يُتلى، وقد أودع عند سماعه قوة تأثير في الناس على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وكان النبيُّ ﷺ –وهو الذي أوتي القرآن– يحبُّ أن يسمعه من غيره، فإذا سمعه بدا تأثُّرُه جليّاً بالخشوع والبكاء[1499]، ومن هنا يمكن تفسير وصف الكلام بالسحر، وربما كان هذا السحرُ متأتّياً مِن الإحساس بتأثير الصوتِ في المقام الأول، وكذلك جعْلُ العربِ خيرَ الكلام ما قلَّ ودلَّ، والبلاغةَ في الإيجاز أو لمحةً دالة[1500]؛ لِما في ذلك معنى يبلغُ وخفَّةٍ صوتيةٍ تؤثِّرُ وتُطْرِبُ، وغير ذلك، يضاف إلى ذلك أن العربية لغة شاعرة "بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فنٌّ منظومٌ منسَّق الأوزان والأصوات"[1501]، وكان العربُ أمة شفوية تؤثر الإنشادَ في الشعر، وتأمر صبيانها برفع أصواتهم؛ لتتفتق لهاتُهُم، فيمتلكون وسيلة مهمة من وسائل التأثير، وهذا التأثير هو الغرض الأساس من الأشعار والخطب والأسجاع وعموم أنواع الكلام، وهو يتأتى من جمال المعنى أو من الإيقاع والنغم، وإذا كان القارئ يؤثر فيه جمال المعنى، فإن السامع يؤثر فيه جمال الإيقاع والنغم، بل يطربه حتى مع خلوه من

[1499] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ، 99/9.

[1500] محمد بن عمران المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، القاهرة، المطبعة السلفية، 1343هـ، ص353.

[1501] عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، القاهرة، دار نهضة مصر، 1995م، ص11.

معنى شريف[1502]، بل إن الإمام الفراهي قد عدَّ "جلَّ محاسن كلام العرب يوجد في صحة التأثُّر"[1503]. وبهذا التأثير مع الصدق تغلب العرب على غيرهم من الأمم بالبيان حسب ما ذهب إليه الإمام الفراهي بقوله: "وفازت العرب منها بشيء واحد لا اسم له عند العجم؛ وهو الصدق والتأثير، وإن هذا لهو الذي يبلغ القلب"[1504]. وربما جاء حكم الفراهي هذا من معرفته بلغات عدة كالأوردية والفارسية والإنكليزية والعبرية والعربية، لكنني أعتقد أن الأمم كلها قد أوتيت في لغاتها نصيبا من التأثير والصدق في كلامها، وليس ذلك خاصا بأمة دون أمة، وإن كانت الأمم تتفاوت في ذلك تبعا لطرائقها في الأداء اللغوي ولما تتيحه لها لغاتها من إمكانات.

صحيحٌ أن العربية لغة شاعرية في المجمل، لكن مستويات الشعرية فيها تتفاوت من قول إلى آخر، فثمة فرق بين الكلام العادي والشعر، وفي القصيدة الواحدة بين سماعها وقراءتها، وغيرُ بعيدةٍ عنا حالُ أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في تأثيرهما عند إلقاء الشعر مع تفاوتٍ بيّنٍ بين شعريهما[1505]، بل إن العشق والشوق وتدفقَ المشاعر كان أحيانا عن طريق هذا السمع:

يا قومُ أذني لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ ... والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا

قالوا: بمَن لا ترى تهذي؟ فقلتُ لهم ... الأذنُ كالعين تُؤتي القلبَ ما كانا[1506]

ولهذا كانت الموسيقا من أكثر وسائل التأثير والإطراب المشتركة بين البشر على اختلاف معتقداتهم وأهوائهم، بل صارت تعرف الآن باللغة الإنسانية المشتركة، ولكن مع هذا كله لا يستطيع المرء وصف الشعور والإحساس المتأتي من الصوت بأكثر من كلمات من نحو جميل ورائع...، أو قبيح وكريه...، ولا تسعفه اللُّغة أو لا يجد القدرة على الإحاطة بوصف هذا الشعور

1502 إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1984م، ص197.

1503 عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، تحقيق محمد الرهاوي، وعامر الجراح، إسطنبول، دار سنابل، 2019م، ص246.

1504 المصدر السابق نفسه ص203.

1505 كان أحمد شوقي يتلعثم عند إلقاء شعره مع أن شعره يمتاز بالجودة وأنه أمير الشعراء في عصره، بينما كان حافظ إبراهيم بارعا في الإلقاء وإنشاد الشعر، ومع أن شعره كان أقل جودة من شعر أحمد شوقي إلا أن إلقاءه للشعر كان أكثر تأثيرا وسحرا للأسماع من عذوبة شعر شوقي، فجمال الصوت أكثر جاذبية من جمال الشعر، فكيف إذا اجتمع الجمالان؟

1506 الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، دار الأرقم، الطبعة الأولى، 1420هـ، 60/2.

والإحساس، ومهما حاول أن يصفه فإنَّه سيخرج وصفا مشوَّهاً أو قاصراً، ولن يستطيع إلا وصف أشياء عامة لا التأثيرِ نفسِه؛ وذلك لأن هذه الأصوات ليست مجرَّدةً أو طبيعية فحسب، بل هي أصواتٌ لغويّةٌ تحمل معانيَ جليَّةً وأخرى خفيَّةً لا يدركها إلا من امتلك حسّاً صوتيّاً عالياً أو ذوقاً مرهفاً. ولهذا حاول هذا البحث أن يدرس الحس الصوتي عند العرب الذي هو أحد المداخل المهمة إلى هذا التأثير، وكان هو والذوق المعيارين الأساسيين عند العرب في الحكم على الكلام قبولا أو رفضا، استحسانا أو استقباحا، وهما أيضا الأساس في ولادة علوم العربية عامة، فالعلوم اللغوية تبدأ بهما وتنتهي بالتقعيد، دون أن يمحى أثرهما من تلك القواعد المستنبطة، بل إن تلك القواعد تهدف إلى الوصول بدارسها إليهما في المقام الأول، لكن رغم هذه الأهمية للحسِّ الصوتيِّ لم يحظَ بدراسات توازي تلك الأهمية وتؤطره وتقعد له، بل كانت دراسات قليلة، ولا أعني بذلك الدراسات التي تناولت الأصوات عند العرب بل دراسات الحس الصوتي وحده، وقد وقفت على اثنتين منها، وهذا بيان ما اشتملتا عليه:

1. **الحس الصوتي عند العرب**: لبندر مجحم الخالدي، مجلة الدراسات العربية، جامعة المنيا، كلية دار العلوم، المجلد 2، العدد 27، يناير 2013، الصفحات 1083-1118. وهو بحث عام في الحس الصوتي، عرض ملخصا ثم توطئة ثم مسار البحث ومنهجه ثم جعل الفصل الأول للحديث عن الحس الصوتي، فمهد للبحث ثم جعله في مطلبين؛ تحدث في المطلب الأول عن عوامل نمو الحس الصوتي وجعلها في المشافهة والأسواق الأدبية وموسم الحج والبيئة الصحراوية، وفي الثاني عن مظاهر الحس الصوتي وجعلها في الشعر وتآلف الأصوات والإشمام والتنغيم والمقاطع الصوتية والخفة والثقل والاشتقاق والإعراب، ثم عقد المبحث الثالث للحديث عن حرص العرب على البيان وموقفهم منه وموقف النبي ﷺ والقرآن منه، ثم تحدث في الفصل الثاني عن الموقف من الإبانة فجعل الفصل الأول للحديث عن ذوي الحصر والعي في المبحث الأول، وعن أصحاب المعاجم والمصطلحات في المبحث الثاني، ثم راح يتحدث عن عيوب الكلام عند عدد من العلماء وعيوب النطق وعن أسباب تعوق البيان كسقوط الأسنان والاختلاط بالأعاجم ثم عرض لوسائل معالجتها، ولم يجعل للبحث خاتمة ولم يعرض له نتائج.

والملاحظ أن الدراسة تركز في معظمها على البيان وعيوب الكلام والنطق، وهذا لا علاقة له بالحس الصوتي بمقدار ما له علاقة باضطرابات النطق، ذلك أن الحس الصوتي يتعلق بالتلقي الصوتي في المقام الأول، ولم تفرق الدراسة بين الحس

والذوق، مع أن الأول يتعلق بالصوت، والثاني يتعلق بجمال المعنى، كما سنبينُ، إضافة إلى أن ما ذكرته من وسائل نموٍ للحس الصوتي ليست إلا عوامل دفعت العرب إلى الاعتماد على المشافهة والسماع، وليست هي نفسها وسائل تنمية له.

2. **نظرية الحس الصوتي لتعليم النحو العربي**، مدخل إلى دراسة كتاب سيبويه للدكتور محمد كاظم البكاء، كُتيّبٌ صدر عن معهد المخطوطات العربية في القاهرة عام 2018م بـ(63) صفحة، وهو بحث جدير بالإشادة، إذ سلك سبيلا ميسرا يعتمد على الصوت في تعليم النحو العربي، واختزل تعليم النحو والصرف بالخفة والثقل، وجعله في أربعة فصول: الأول تناول فيه التراكيب اللغوية عند العرب القدامى، وتناول في الثاني القواعد الصوتية في اللغة العربية، وفي الثالث قواعد نظرية الحس الصوتي، وجعله في قسمين: قواعد بنية الكلمة الصوتية: وجعل المبنيات من الأسماء والأفعال والحروف، والممنوع من الصرف، والأسماء المركبة تركيبا مزجيا أو على فتح الجزأين، أو الأسماء في باب الحكاية هي المبنيَّ فحسبُ، وما عداها معربٌ. وقواعد التركيب الصوتية المتمثلة في النصب بعد التمام وما يشبه الفعل ولطول الكلام، والحذف للتخفيف وللتعجل ولتوالي الأمثال، والمماثلة الصوتية والمطابقة، والمخالفة الصوتية، والحالة المطلقة، وجاء الفصل الرابع للحديث عن قواعد الحس الصوتي ونظرية العامل وركز على الإضافة خاصة، ثم الفصل الخامس تناول القواعد الصوتية ومنهج الإعراب، ثم الفصل السادس للحديث عن الأبواب النحوية والقواعد الصوتية، ثم تمرينات وموضوعات متفرقة. لكن يؤخذ على هذا البحث:

أ. أنه هدف إلى تعليمِ النحو العربي لا دراسته، ولا أدري أي نحو سيتعلم الطالب مما جاء به؟ وهل سيمكِّن إتقانُ هذه القواعد الصوتيةِ المذكورةِ الطالبَ أو الباحثَ من دراسة الظواهر والأساليب النحوية وإجراء التحليلات النحوية الأساسية بَلْهَ التخصصية المعمقة؟ وهل تمكِّن هذه القواعد من دراسة العلاقات بين عناصر التراكيب النحوية؟ إضافة إلى أن كثيرا مما يشمله النحو لا يمكن أن يدخل في هذه النظرية، ولا يمكن أن تشمله، كالاستئناف والإتباع والعطف والتقديم والتأخير والقلب والحمل والتضمين والإنابة وكثير من قواعد الاتساع عامة.

ب. أن ما جاء به هو في الحقيقة يدخل في تعليم اللغة وتيسير ضبط النطق بالحركات الصحيحة، وليس في تعليم النحو أو الصرف. وهو يصلح لتعليم العربية للناطقين بغيرها، ويساعدهم على تعلمها بدلا من إدخالهم في تفاصيل النحو وجزئياته؛ لكونه قد بناها على الخفة والثقل، لكن الإشكال فيه أن الأعجمي سيشعر بثقل الكلمات كلها، وبثقل التراكيب أيضا، ومن ثَمَّ لن يكون هذا المنهج ذا جدوى وفائدة كبرى. ثم إنَّ الخفة والثقل لا يمثلان إلا جانبا يسيرا في النحو العربي ولا سيما التعليل، وهما أيضا معياران نسبيان، فما يجده امرؤ ثقيلا قد يجده غيره خفيفا، وخلافه صحيح، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يكونا

معيارا موحدا عند جميع الناطقين بالعربية أو متعلميها، أم أن لكل امرئ أن ينصب ما يستخفه ويرفع ما يستثقله! وكيف يكون ذلك والناس الآن وفي كل زمان تجد خفيفا ما اعتادت ألسنتها عليه من اللهجات العامية وإن كان خطأ.

على أن هذه الملاحظ لا تقلل من شأن الدراستين ولا من أهميتهما، بل كل منهما تسد ثغرة مهمة في بابها، وهما تختلفان عن دراستنا في المحتوى والتقسيم، وإن تقاطعت معهما في العنوان الرئيس وبعض العناوين الفرعية والمصطلحات، فمصطلحات المماثلة والمخالفة والمعايير ووسائل تربية الحس الصوتي تختلف في هذا البحث بمفهومها وأدلتها عنها في سابقتيه؛ لذلك جاء هذا البحث متمما لهما في بعض الجوانب، فقد تناول مفهوم الحس الصوتي ووسائل تربيته، ومستويات الحس الصوتي: مستوى الحركة ومستوى الحرف ومستوى الكلمة ومستوى التركيب، كما كشف عن ستة معايير للحس الصوتي عند العرب، ثم عرض لبعض مظاهر الحس الصوتي في بعض علوم العربية كالعروض والأصوات والبلاغة والصرف والنحو، إذ لا يمكن الإحاطة بها في بحث كهذا، بل تحتاج إلى أبحاث كثيرة لتجمعها. وقد اتبعتُ فيه المنهجَ الوصفيَّ من خلال وصف الموضوع المدروس بطريقة علمية وتفسيره اعتمادا على أدلة وبراهين مكنت من تأطير بعض جوانبه في المفهوم والمستوى والمعايير والمظاهر. وليس لديّ أدنى شكّ أن ثمة جوانب من الحس الصوتي لم تكشف بعدُ، ولعلَّ هذه الدراساتِ الثلاثَ تفتحُ الطريقَ أمامَ الباحثين لكشفها، ولعل اتباع مناهج علمية أخرى في البحث سيكشف جوانب لم تتطرق إليها هذه الدراساتُ كلُّها.

المطلب الأول: الحس الصوتي مفهوما وتربيةً

الحِسُّ مصدر للفعل المضعّف "حسَّ"؛ وأصله "حسس"، لكنه أُدغم لاجتماع المثلين في كلمة واحدة، ومن الحسِّ اشتُقَّت كلمات كثيرة منها الحاسّة والحساسية وأحسَّ ومصدره الإحساسُ، وهو العلمُ بالحواسِّ أو الشعور بالشيء بإحدى الحواسِّ، تقول: أحسستُ بالبرد أو الألم؛ أي شعرتُ به، وأحسست بالعطر إذا شممته، وأحسست بالطعم إذا ذقته، وأحسست بالجسم إذا لمسته، وأحسستُ بجمال المنظر إذا رأيته واستمتعت به وترك أثرا في نفسك، والشعور بالحواسّ قد يكون جميلا محببا، وقد يكون قبيحا مستكرها. ويأتي الحِسُّ أيضا بمعنى الإدراك، قال عمر بن أبي ربيعة:

فلمَّـا مضـــــتْ من أوَّلِ اللَّيـلِ هجعـةٌ وأيـقـنـتُ مـن حِـسِّ الـعـيـونِ غُـفُـولا
دخلـتُ على خوفٍ فـأرَّقـتُ كـاعبـاً هضـــيمَ الحشـــا، ريَّا العظامِ، كســـولا

وقد اجتمع معنى الإحساس والإدراك بقول القائل: إن الشيطان حَسَّاس لحَّاسٌ[1507]؛ أَي شديد الإحساس والإدراكِ. ويقال: شخصٌ حسَّاسٌ؛ أي شديد الحسِّ والتأثُّر. لكن الحِسَّ الآن صار غالبا على الصوت، تقول: ما سمعت حسَّه؛ أي صوته، قال الله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُون حَسِيسَها﴾ [الأنبياء: 102]. والحِسُّ أيضاً الرَّنَّةُ. وقيل أيضاً: الحِسُّ: الحركةُ[1508]، جاء في الحديث: "كنا جلوسا في مسجد الخَيْفِ ليلة عرفة إذ سمعنا حِسَّ الحَيَّة"[1509]؛ أيْ حركتها. وأعتقد أن المراد بالحركة هو الصوت الناتج عنها لا الحركة نفسها؛ لأن الحركة تُرى، فهي تدرك بحاسة البصر؛ لكن يُحسُّ بها من الصوت الناتج عنها إن لم تُرَ.

ومما يلاحظ مما سبق أنَّ الحسَّ يتضمنُ جملة أمور، منها: العلم بالحواسِ والشعور بالشيء، والتأثُّر، والإدراك، والصوت، والرنّةُ، والصوت الناتج عن الحركة، ولهذا تعمدنا وصف "الحِسّ" في عنوان البحث بالصوتيّ؛ وذلك بهدف جعْلِه محدَّداً بحاسة السمع التي لها صلة بموضوع تلقي اللغة والحكم على التراكيب بالصحة أو اللحن، أو بالحسن أو القبح قبل ولادة علوم العربية ونموها ونضجها، ولا شكَّ أنَّ السَّمعَ بالأذن يُحِسُّ بالأصوات الطبيعية واللغوية وما تتصف به، وأنه مرتبط بالنطق صوتيا، فالأذن جهاز سمع ونطق في آن واحد[1510].

إنَّ الحسَّ الصوتيَّ ملكة عامة عند جميع البشر –ما عدا مَن حُرِموا هذه الحاسة– يميّزون بها بين الأصوات المختلفة والمتعددة من حولهم سواء أكانت لغوية أم طبيعية، وهذه الملكة تصقل وترهف بكثرةِ السَّماع؛ فكثرةُ سماع صوتِ قارئ ما أو صوت مغنٍّ أو منشدٍ أو صديقٍ أو قريبٍ أو بعيدٍ تجعل المرء يميزه من غيره بسهولة ويسرٍ، وكثرة سماع الموسيقا تجعل الأذن موسيقية تميّزُ الجيّدَ من السَّيّئ، وبين الألحان المختلفة والمقامات والطبقات الصوتية المتنوعة، وكذلك كثرة سماعها الشعرَ

[1507] ينظر: محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 1414هـ، (حسس). وهذا القول في أصله حديث موضوع، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزياداته، دمشق، بيروت، د.ت، ص213 برقم (1476).

[1508] المصدر السابق نفسه (حسس).

[1509] أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، حقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001م، 106/6 برقم (3649).

[1510] الأذن تضخم الذبذبات الصوتية إلى ما بين ثلاثة إلى ثمانية أضعاف حتى تتمكن الألياف العصبية من نقلها إلى منطقة فيرنيك في القسم الخلفي من الفص الصدغي في الدماغ. وعضوياً ترتبط الأذن مع البلعوم بقناة استاكيوس (نفير أوستاشن)؛ ولذلك يسمع الإنسان صوته قبل أن يصل إلى الآخرين، وقبل خروجه من الفم؛ كما يشعر بالفرق بين صوته الذي يسمعه وبين تسجيلٍ له. انظر: السيد علي سيد أحمد، فائقة بدر، الإدراك الحسي البصري والسمعي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 2001م، ص265–270، 290–291.

يجعلها تميّزه من النثر والكلام العادي، وكذلك سماعها الكلام العامي يجعلها تشعر بغرابة الكلام الفصيح، وكثرة سماعها الفصيح يجعلها تنفر من سماع الكلام العامي أو الملحون، وكذلك تميز أصوات النساء من أصوات الرجال، وتميز بين أصوات الأشخاص الذين تعرفهم، بل إن السماع هو الوسيلة الأهم لمعرفة الأشخاص في حال غيابهم جسديا، ذلك أن لكل إنسان بصمة صوتية خاصة به تميزه من سواه، مثلها مثل بصمة العين أو الإبهام، بل هي أيسر منهما في تعرُّف المرء؛ إذ لا تحتاج إلى أجهزة فحص لمعرفتها، وهذا التمييز بين الأصوات إنما يُمتلك بأمرين: أولهما الدربة والمران، وثانيهما طول زمن السماع، وهما يجعلان المرء لا يقف عند حدود التمييز فحسب، بل يتجاوزه إلى التأثير في النطق؛ ولذلك يشترك أبناء المنطقة الواحدة بسمات نطقية تكاد تكون واحدة، ويقترب أداؤهم لأصوات اللغة كثيرا، ذلك أنَّ اللغةَ استقبالٌ، ثم إعادةُ إنتاج، ولن يكون الإنتاج إلَّا وفق ما امتلأت به الذاكرة، وتشكَّلت عليه الأدوات المنتجة له، وتبرمج العقل واللسان عليه، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وإلا فكيف يمكن تفسير تميُّز أهل منطقةٍ ما بلهجةٍ خاصة بهم، فلهجة أهل مصر تختلف عن لهجة أهل المغرب، ولهجة أهل المغرب تختلف عن لهجة أهل الشام، وأهل الشام تختلف لهجتهم عن أهل العراق، وأهل الخليج تختلف لهجتهم عن غيرهم، وهكذا دواليك، كذلك تجد اللغة الإنكليزية في بريطانيا مختلفة عنها في أمريكا أو الهند...، من هنا يمكن القول: إنَّ القدرات النطقية للإنسان تتكوَّن ممَّا يَسمعُ، كما يتشكل حسُّهُ الصوتيُّ منه أيضاً. ولعل ما يؤكد ذلك ما ذهب إليه اللساني الأمريكي بول بِمسلر في نظريته حول تعليم اللغات، إذ يرى أنه يكون عبر صوتيات مختلفة تجبر العقل على التعلُّم؛ أي أن المتعلِّم متى عرف الصوت وأتقنه فإنَّ بقية الأمور أيسر منه بكثير، فالطفل يتعلم التحدث عبر التخاطب مع والديه قبل تعلُّمِهِ أشياءَ كثيرةً جدّاً، ولهذا بنى نظريته على أربعة مبادئ كبرى، هي: التوقع؛ وقصد به حثَّ المرءِ على سماع الكلام والتفكير فيه قبل ترديده، والتكرار التدريجي؛ وقصد به أن المرء يكرر الكلام على أوقات متعددة، والتركيز على الكلمات الأساسية، والتعلم الطبيعي؛ وقصد به الممارسة اللغوية وتكرارها دون تفكير فيها[1511].

لقد كان العربي يعيش في مجتمعٍ لسانُهُ فصيحٌ سليمٌ، ولا يُسمع فيه إلا الكلامُ الفصيحُ، بل كان بعض العرب يرسل أبناءه إلى البادية؛ ليسمعوا لغة نقية أكثر بلاغة وفصاحة[1512]، إذن فهو مجتمع يعتمد على السماع والمشافهة أكثر من اعتماده على القراءة والكتابة، لكونه مجتمعا أميّاً ومحاربا في الوقت نفسه، فهو يحتاج إلى كلام يزيده حماسا وتوقدا، وقد عاش

[1511] انظر نظرية بيمسلر: http://elwmed.blogspot.com/2014/11/blog-post_38.html تاريخ الزيارة 2021/6/1م.

[1512] انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار الساقي، الطبعة الرابعة، 2001م، 303/16.

قرونا يتخذ السماع والمشافهة وسيلتين أساسيتين للتعبير عن أغراضه واحتياجاته ومشاعره وأخباره ومعارفه وأدبه؛ ولهذا آثر اللغة الموسيقية التي تطرب وتعلق في الأذهان أكثر من غيرها وأكثر من اللغة المتكلفة المصطنعة، فآثروا إنشاد الشعر وسماع الخطب والسجع غير المتكلف والنثر عامة عندما يكون قريبا من الشعر دون أن يكون على أوزانه، قال إبراهيم أنيس: "وفي رأيي أن ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو إيقاعه، وتأبى آخر لنبوّه، أو لأنه –كما يعبر أهل الموسيقا– نشاز"[1513]. إن كثرة السماع وطول زمانه وتعدُّد المسموعات وتكرارها تنمي الحسَّ الصوتي والقدرة على التمييز بين الكلام على نحو كبير.

ومن ثَمَّ تربَّى الحسُّ الصوتيُّ عند العرب على هذا، وتكوَّنت عندهم ضوابط صوتية يحكمون بها على الكلام تصويبا أو تلحينا، استحسانا أو استقباحا؛ ولهذا ربما قال ابن خلدون: "والسمع أبو الملكة اللسانية"[1514]. يزاد على ذلك أن العربية –وكل اللغات الأخرى كذلك– لها أنساق صوتية محددة ونظامٌ صوتيٌّ تسير وَفقه، وما دام الأمر كذلك فلعلَّ هذه الأنساق وهذا النظام هي المعايير بعينها، ولعلَّ هذا سبب من أسباب كثيرة يمكن بها تعليلُ تداخُلِ علم الأصوات بالنحو والبلاغة في كتاب سيبويه، وبناءِ كثير من القواعد النحوية فيه، وتعليلُ الظَّواهرِ على أساسٍ صوتيٍّ ولا سيما الطول والقصر والخفة والثقل وكثرة الاستعمال وغيرها.

لقد امتلك العربي –لاعتماده على السماع والمشافهة– حسا صوتيا مرهفا استطاع به أن يعرف اللحن الذي يقع في أي كلام يسمعه، كما استطاع أن يميز به الشعر من الرجز من الحداء، وأن يميز بين بحور الشعر المختلفة، وأن يميز صحيح الوزن من مختله، وربط الصوت بالمعنى والمقصد والمتكلم والمخاطب ونوع الخطاب، فالصوت في الغزل مختلف عن الصوت في الهجاء أو المدح أو الوعظ...، وصوت الخطيب في خطابه مختلف عن صوت الشاعر في إلقاء شعره، وعن الساجع في تلحين سجعه، كما يختلف صوت المتكلم ودرجته حسب المخاطب، ولا يمكن أن يكون واحدا إذا كان المخاطب ملكا أو صديقا

[1513] أنيس، دلالة الألفاظ ص195.

[1514] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق إبراهيم شبوح، إحسان عباس، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى، 2006م، 475/2.

أو حبيبا أو عدوا...، قال الإمام الفراهي: "إن تصرُّف البليغ في أنحاء الكلام حين يصطفي ما شاء من الألفاظ المناسبة معنى وصوتا= أمرٌ معلومٌ... وكما أن للصوت مناسبة بمعنى خاصٍّ، كذلك له مناسبة بالمقصد، فبعض الأغراض يستدعي كلاما سهلا، وبعضها كلاما فخيما جزلا، مثلا في الغزل والآداب لا يليق من الأصوات ما فيه الشدة والفخامة، وهكذا للصوت مناسبة للمتكلم، فإن كلام الملوك والحكام ينبغي أن يكون أفخم من كلام العامة، وهكذا يراعى جانب المخاطب"[1515].

وقبل أن نختم الحديث عن مفهوم الحس الصوتي ووسائل تربيته لا بد أن نفرّق بينه وبين الوعي الصوتي، فالحسُّ الصوتيُّ إحساس ومشاعر، وهو ملكةٌ عامة تنمَّى بكثرة السماع والتدريب والمران، والوعيُ الصوتيُّ معرفةٌ تزاد كلما ازداد العلم فيه، وهو امتلاك القدرة على معرفة إنتاج الأصوات اللغوية وصفاتها وكيفية إخراجها وتشكلها بعضها مع بعض لتؤلف الكلمات، والقدرة على إدراك التشابه والاختلاف بين الأصوات. فالأول أقرب إلى الطبع، والثاني أقرب إلى الصنعة.

وكذلك لا بد من التفريق بين الحسِّ والذوق، فالحسُّ بشكلٍ عامٍّ هو الإحساس والإدراك بالحواسّ كما أسلفنا، والذوق هو الإحساسُ بالطعم بواسطة اللسان، ثم انتقل مجازا للتعبير عن إدراك المعاني والإحساس بها، وبناء على هذا فالذوق جزءٌ من الحسِّ أو نوع من أنواعه مختصٌّ بالمعاني، وأمَّا الحِسُّ الصوتيُّ الذي أدرنا عليه هذا البحث فيتعلَّقُ بتلقي الأصوات والإحساس بها وبإيقاعها فحسب دون بقية أنواع الحس التي تدرك بالحواسّ الأخرى، وهو يكون على مستوى الحركة والحرف والمقطع والكلمة والتركيب، بينما يتعلق الذوق بإدراك المعاني والتلذذ بجمالها، وهذه المعاني الجميلة لا تتأتى من الحرف أو المقطع؛ لأنهما لا يؤديان معاني مستقلة، ولا من الكلمة المفردة؛ لأن معناها واحدٌ، وإنما يتأتى جمال المعاني من التعبير عنها بالتركيب؛ وفي هذا يتفاوت الناس والبلغاء والشعراء؛ ولهذا أعتقد أن الذوق مرتبط بتذوق المعاني في التراكيب فحسب، وأن الصوت يخدم المعنى، والتعبير عن المعنى هو الدافع الرئيس للنطق بالأصوات، وأن ما قيل عن الذوق في الكلمة المفردة في مؤلفات العلماء إنما هو مرادف للحسِّ الصوتي، وإن كان في أول أمره ذوقا حين استُنبط المعنى للكلمة من السياق الذي وردت فيه، وثمة فرق آخر يتمثل في أن الحسُّ الصوتي متوقف على تلقي الأصوات فحسب، بينما يمكن أن يكون الذوق في المسموع والمكتوب، وربما كان في المكتوب أكثر بعد عصور التدوين، وربما كان فيه أعمق أيضا إذا جاء بعد طول مدارسة

[1515] الفراهي، جمهرة البلاغة ص156.

وتأمُّلٍ. وأيضا يستثقلُ الحسُّ الصوتيُّ ألفاظا كثيرة نحو "اصتبر، سدتة، اوتقى، الهعخع" وغيرها لعدم انسجام الأصوات أو لثقل نطقها نتيجة تقارب المخارج أو الصفات، لكن الذوق لا أثر له هنا؛ لأن "اصتبر، سدتة، اتَّقى ..." لها المعنى نفسه قبل الإبدال وبعده وصار الحسُّ يقبلها، وكذلك يقبل الحس الصوتي كلمة "جيش" مع أن حروفها متقاربة المخارج، ولا علاقة للذوق بذلك، وإلا فما المعاني التي يقبلها أو يرفضها فيها أو ما المعاني الحسنة أو القبيحة فيها؟ وسيتبين لنا هذا على نحو مفصَّل عند الحديث عن مستويات الحس الصوتي ومعاييره ومظاهره.

المطلب الثاني: مستويات الحس الصوتي:

لم تلد علوم العربية كالنحو والصرف والأصوات والعروض والبلاغة وغيرها إلا بعد منتصف القرن الثاني الهجري، لكن تطبيق العرب لقواعد تلك العلوم في كلامهم كان سجية وطبيعة قبل ولادتها وبعدها في بيئات الفصاحة، لاستقرار تلك القواعد في طبائعهم من كثرة سماع الكلام الفصيح واعتياد الأذن عليه، كما هو حال الشعراء آنذاك، ينظمون الشعر وفق بحور معينة محددة قبل أن تُعرف مصطلحات البحور والعروض؛ لاستقرار البحور في طبائعهم نتيجة كثرة سماعهم الشعر وإنشادهم إياه، وقد تجلّى الحسُّ الصوتيُّ عند العرب على مستويات عدة، من أبرزها:

1. مستوى الحركة: اعتادتْ أذنُ العربيّ على سماع الكلام مُعرَباً بحركاته وسكناته، ومخالفةُ ما ألفته يعدُّ عندَهم صوتاً نشازاً، إضافة إلى ذلك، تمكّن الحركات على الكلمة من إنتاج الصوت ومدّه وتلوينه بالإيقاع الموسيقي إحداثا وتنويعا بين انخفاضٍ وصعودٍ وتدويرٍ. قال العقاد: "إن هذه الحركاتِ والعلاماتِ تجري مجرى الأصوات الموسيقية، تستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع، ولها بعد ذلك مزيةٌ تجعلها قابلةً للتقديم والتأخير في كل وزنٍ من أوزان البحور؛ لأن علامات الإعراب تدلُّ على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنظومة"[1516]. وبهذا الحسِّ الصوتي أيضا كانَ العربيُّ يفرّق بالحركات وحدها بين الكلمات ذوات الحروف الواحدة، فـ "الحُلم" عنده غيرُ "الحِلم"، و"المَشيةُ" غيرُ "المِشية"، و"الخُطبة" غيرُ "الخِطبة"، و"الظُّنون" غير "الظَّنون"، كما يفرّق بها بين المعاني المختلفة، ويوضِّحُها، ويدفع اللبس عنها، ويُبين عن مقاصده أحسن إبانة، بل تجاوز ذلك إلى أن دلَّ بتوالي الحركات على الكلمة على

[1516] العقاد، اللغة الشاعرة ص19.

توالي الحركات في المعنى، نحو خَفَقَان، عَسَلَان، ضَرَبَان، قال ابن جني: "قابلوا بتوالي حركات المثال حركات المعاني"[1517]. وقال الخليل: "يتوهمون في حُسن الحركة ما يتوهمون في جرْس الصوت"[1518]. وهذا يدل على إحساسٍ صوتيٍّ عالٍ جدّاً. ويتجلى الحس الصوتي على مستوى الحركة أكثر في أوزان الشعر، فحركة واحدة تكسر البيت كله وتعيبه والقصيدة، يروى أن النابغة الذبياني كان يُقوي في شعره، وقد عيب عليه قوله:

من آل مية رائحٌ أو مغتدِ عجلانَ ذا زاد وغير مزوَّدِ

زعم البوارحُ ان رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

فلما أنشدت البيتين جاريةٌ، ومدَّت صوتها بالروي، أحسَّ النابغة بالنشاز، فغيَّر روي البيت الثاني إلى:

..... وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ[1519]

والقصةُ –إن صحَّت– تدلُّ على الحسِّ الموسيقي العالي عند النابغة خاصة والعرب عامة آنذاك، والذي جعلهم يميزون صحيح الشعر من سقيمه، واستجابة لهذا الحس كانت الأشعار تنشد وتغنّى، ولا شكَّ أنَّ إدراك الخطأ والصواب في الكلام أيسر بكثير من إدراك الخلل في وزن الشعر، فكم من نحويٍّ لا يحسن إدراك الخلل في الوزن سماعياً، لكنه يدرك اللحن في الكلام بسهولة ويسرٍ.

أما العلماء فقد بدا الحس الصوتي جليا في أعمالهم، ومنهم أبو الأسود الدؤلي في عمله المبتكر المعروف بنقْط الإعراب[1520]، ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي اعتمد عليه في استنباط بحور الشعر العربي ووضع علم العروض، وفي الدراسات الصوتية التي قدم بها لمعجم العين ونثرها بين موادّه، وفيما قدمه في النحو والصرف، وكذلك سيبويه والمبرد وابن جني وغيرهم.

[1517] عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، د.ت، 154/2. وانظر: أبو بشر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، 2009م، 14/4.

[1518] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، القاهرة، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، د.ت، 55/1.

[1519] انظر القصة في: المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص39.

[1520] أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه الزيني، محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، 1966، ص13.

2. مستوى الحرف: تجلى الحس الصوتي على هذا المستوى في أن لكل حرف صوتا وصدى وإيقاعا خاصا به يعبر عن معنى في حالي البساطة والتركيب، يقول صبحي الصالح: "كل حرف منها يستقل بمعنى خاص ما دام ينتقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظلٌّ وشعاعٌ، إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع"[1521]. كما تجلى الحس الصوتي في "الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية"[1522]، فاستغنت العربيةُ بذلك عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين، قال العقاد: "ذلك ما نعنيه باللغة الشاعرة في تقسيم حروفها، فهي لغة إنسانية ناطقة تستخدم جهاز النطق الحي أحسن استخدام، يهدي إليه الافتنان في الإيقاع الموسيقي"[1523]. كذلك تجلى الحس الصوتي في الجنوح نحو الخفة وتجنب الثقل في نطق الأحرف المتقاربة المخارج أو الصفات متتابعة لثقلها على السمع أيضا، فما كان ثقيلا على اللسان كان ثقيلا على الآذان، وخلافه صحيحٌ أيضا، من ذلك أنهم قالوا: ستّة، وأصلها: سدتة[1524]، فلما ثقل نطقها أبدلوا الدال تاء ثم أدغموها، وكذلك في الفعل اتّحد وأمثاله كـ اتّقد، اتّقى، اتّعظ، اتّسر، إذ إن أصلها: اوتحد، اوتقد، اوتقى، اوتعظ، ايتسر، فلما ثقل نطقها أبدلوا الواو أو الياء تاء ثم أدغموها. وكذلك نحو اصطبر وازدهر وأمثالهما، إذ إن أصلها: اصتبر، وازتهر[1525]، كما تجلى الحس الصوتي في اختيار الأحرف المناسبة لأفعالها والمعاني[1526]؛ لهذا جعلوا قضم لليابس؛ لقوة القاف، وخضم للرطب؛ لضعف الخاء؛ أي أنهم جعلوا الحرف الأقوى للفعل الأقوى، والحرف الأضعف للفعل الأضعف[1527]. ومثل ذلك: قدّ وقطَّ، ومدَّ ومتَّ[1528]، وغير ذلك كثير، قال ابن جني: "وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها،

1521 صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة العربية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة 16، 2004م، ص142.

1522 العقاد، اللغة الشاعرة ص12.

1523 المرجع السابق نفسه ص13.

1524 سيبويه، الكتاب 239/4.

1525 المصدر السابق نفسه 239/4.

1526 الصالح، دراسات في فقه اللغة العربية ص141 وما بعدها.

1527 ابن جني، الخصائص 66/1.

1528 المصدر السابق نفسه 67/1.

ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[1529]. كما تجلى الحس الصوتي على مستوى الحرف في صفات الحروف كالتفخيم والترقيق، والهمس والجهر والشدة والرخاوة والتوسط بينهما وغيرها من صفات الحروف.

3. مستوى الكلمة: يتجلى الحس الصوتي في جوانب كثيرة، منها الميل إلى الكلمات القصيرة والقليلة الأحرف، والعناية بالألفاظ ليكون لها وقع حسن على السمع، ومنها استبعاد كثير من الأبنية لثقلها في النطق وعلى الأذن، إذ لا يتقبلها الحس الصوتي، فأبنية الفعل الثلاثي المجرد ستةٌ فحسب، مع أن القسمة المنطقية تقتضي أن تكون اثني عشر بناء، لكن العرب تخففوا من نصفها، وذلك لثقلها في النطق وعلى الأذن، نحو بناء "فِعُل"؛ وذلك لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، كذلك كانت شدة صوت البناء تدل على شدة في المعنى، فـ "كَسَّرَ" أشدُّ من "كَسَرَ"، واخشوشن وخشن، واغرورق وغرق، واحدودب وحدب، وكذلك في الأسماء نحو خِضمّ وعفرناة...[1530]، كذلك في تكرار الحرف للمبالغة، وهذا يظهر في مضعف الرباعي، نحو زلزل وقلقل وكبكب ومصادرها نحو الزلزلة والقلقة والكبكبة وغيرها، تكون للسرعة، قال ابن جني: "جعلوا المثال المكرّر للمعنى المكرّر"[1531]. وكذلك جاء الصوت على "فَعَلَة" مطابقا للمعنى، نحو الجَلَبَة والخَدَمَة[1532]، ومن ذلك أيضا الأفعال الاضطرابية نحو أزَّ ورجَّ وزلزل وتمور وتميد...[1533]. ومن ذلك أنهم جعلوا الإدغام لمدِّ الصوت، والتضعيفَ للترجيع، فجعلوا "صرَّ" لصوت الجندب، و"صرصر" لصوت البازي محاكاة لهما لِمَا في الأول من المدِّ وفي الثاني من الترجيع[1534]. ومن ذلك أنهم استبعدوا كلَّ كلمة تبدأ بـ"نر"[1535] ولم يجعلوها عربية نحو نرد ونرجس؛ لقرب مخرجي النون

[1529] المصدر السابق نفسه 159/2.

[1530] الفراهي، جمهرة البلاغة ص141.

[1531] ابن جني، الخصائص 155/2.

[1532] سيبويه، الكتاب 16/4.

[1533] نوال الفلاج، أفعال الحركة الاضطرابية في القرآن الكريم، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر، المجلد (32)، العدد (7)، 2016، ص133.

[1534] الفراهيدي، العين 56/1، وابن جني، الخصائص 155/2.

[1535] الفراهيدي، العين 53/1.

والراء، وكلّ كلمة مؤلفة من حرفي الكاف والضاد من دون فاصل بينهما نحو الضنك والضحك، بخلاف التضعيف نحو الضكضكة والكضكضة[1536].

كذلك يتجلى الحس الصوتي على نحو أبينَ في إيقاع الكلمات وموسيقاها ووزنها، قال العقاد: "إذا انتقلنا من الحروف إلى الكلمات التي تتألف منها، فهذه الدلالة ظاهرة جدا كظهورها في الحروف المتفرقة أو أظهر؛ لأنها تضيف الموسيقية في القواعد، والموسيقية في المعاني إلى الموسيقية الملحوظة في مجرد النطق أو السماع بغير معنى يتم به التخاطب بين المتكلمين، وحسبنا أن نلحظ أن الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في العربية"[1537].

ولم يقف الأمر عند ذلك، بل كان للحس الصوتي قيمة كبرى في توظيفه في حياة العرب ومتعلقاتها حتى بعد انتقالهم من حياة الأمية والبداوة إلى القراءة والكتابة والاستقرار، فتسمع للأشجار حفيفا، وللطيور غناء، وللأمطار وقعا، وللطبيعة أصداء، وغير ذلك مما يوحي بموسيقا الكلام[1538]، كما ميّزوا بين أصوات الكائن الواحد أو الشيء الواحد، فأصوات الإبل: رُغاء وإرزام وهدير وجرجرة، وأصوات الحصان: صهيل وضبيح وقبع وجحمة، وأصوات الأسد: زئير وزمزمة وزمجرة، وأصوات الرياح: هرير وعزيف وهبوب وسهول ودويّ وحنين...، كما ميّزوا بين الأصوات المختلفة للحيوان والطبيعة والرياح والأمطار، وأطلقوا مسميات كثيرة لهم تحاكي الصوت نفسه، فالخرير للماء، والفحيح للأفعى، والصليل للسيف، والأزيز للرصاص، والمواء للقطط، والعواء للكلب، والزئير للأسد...[1539]. قال ابن جني: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم"[1540]. ولا يقتصر هذا على العربية وحدها، فكثير من اللغات لها حظٌّ منه، لكنه في العربية أكثر وأوضح، قال الإمام عبد الحميد الفراهي الهندي- وهو متقن للغات عدة كالفارسية والأوردية والإنكليزية والعبرية والعربية-"اعلم أن للصوت دلالة على بعض المعاني لمناسبة بينهما، وما من لغة إلا فيها آياتٌ على ذلك.

[1536] المصدر السابق نفسه 56/1.

[1537] العقاد، اللغة الشاعرة ص14.

[1538] أنيس، دلالة الألفاظ ص198.

[1539] محمد علي الخولي، علم الدلالة، الأردن، دار الفلاح، الطبعة الأولى، 2001م، ص77-78، والفراهي، جمهرة البلاغة ص142-143 و146.

[1540] ابن جني، الخصائص 159/2.

وأما لغة العرب فالدلالة فيها أكثر وأبين من أن ينكرها منكر"[1541]. وقال أيضاً: "ولم أرَ قوما راعى مطابقة الصوت بالمعنى كما أرى العرب"[1542].

ولعل من هذا المستوى في الشعر ما نراه من الإكثار من أسماء المحبوبات في الشعر، وذلك لأن الأذن تطرب لسماعهن، ولا تمل منه وإن تكرر؛ ولا علاقة للأمر بالذوق هنا كما سبق أن بينت، بل يتلذذ الحس بسماعهن، وربما كان لبعض الأسماء وقعٌ أكثر من غيرها لكونها أسل في النطق وأخف على الأذن وأطرب؛ ولهذا وجدنا أسماء تتكرر بكثرة نحو هند وليلى وعزة وبثينة وفاطمة وزينب، وبالمقابل وجدنا بعض الأسماء الغريبة للمحبوبات تفسد وقع الكلام على الأذان، يروى أن جريرا أنشد قصيدته العينية لأحد خلفاء بني أمية:

بان الخليط برامتين فودَّعوا أو كلَّما رفعوا لبينٍ تجزعُ

وهو يتحفز ويزحف من حسن الشعر حتى أنشد:

وتقولُ بوزعُ قد دببت على العصا هلا هزئتِ بغيرنا يا بوزعُ

فقال له الوليد: أفسدتَ شعرَك بهذا الاسم، وفتر[1543]. وكذلك الأمر في ذكر أسماء الأماكن وديار المحبوبة، فإن بعض الأسماء تتكرر ويحسن وقعها على السمع ويستلذه الحس الصوتي مثل نجد ورامة وجبل نعمان وسلمى وغيرها، ولعل هذا أيضا السبب في وصف العرب والنقاد الألفاظ بالحلاوة والطلاوة والجزالة والفخامة وغير ذلك من صفات تفيد الإحساس بأصواتها وتأثيرها فيهم.

4. مستوى التركيب: يتجلى الحس الصوتي على مستوى التركيب في التنغيم[1544] الذي يتمثل في التلوين والانخفاض والصعود في درجات الصوت خلال الكلام، كما يتجلى في الإيقاع الموسيقي في كثير من أساليب العربية كالاستفهام والتعجب والتفي، وفي كثير من ظواهرها كالإعراب والذكر والحذف والتقديم والتأخير والوصل والفصل والتكرار اللفظي

[1541] الفراهي، جمهرة البلاغة ص146.

[1542] المصدر السابق نفسه ص189.

[1543] ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، 1982، 70/1.

[1544] محمد الرهاوي، القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، 2019، ص66.

المتماثل، والتكرار الصيغي المتماثل وحركات الإعراب والتوازي النحوي[1545]، وكذلك في كثير من فنون البديع كالمقابلة والجناس والسجع وغيرها، كما يتجلى بموسيقية الكلام، لكون العرب –كما أسلفت– أمة أمية محاربة تُؤثِرُ الإنشاد وما يثير الحماس ويزيده، فبالحس الصوتي مثلا يدرك المرء نوع الكلام اعتمادا على التنغيم، نحو: ما أجمل السماء، استفهاما أو نفيا أو تعجبا، كما يدرك به المحذوف من التركيب، فحذف الصفة مثلا يُعرف من التنغيم ونبرة الصوت، قال ابن جني تعليقا على حكاية سيبويه: سيرَ عليه ليلٌ: "تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله (طويل) أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلا! فتزيد في قوة اللفظ بـ (والله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط الكلام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكّن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك"[1546]. كذلك يرتبط التقديم والتأخير بجودة إيقاع التركيب وإحداثه نغما لا يتأتى لو جاء على الأصل، قال مثلا رابح بومعزة عن التقديم: "وقد يكون التحويل بالتقديم لإحداث النغم الذي له درجة كبيرة وتأثير عجيب على السامع...، وهذا التحويل قد جعل النص محمّلا بطاقة تأثيرية عالية جدا في الجانبين المعنوي والصوتي"[1547].

وقد كان للتنغيم أثر كبير في التفريق بين الأدوات النحوية التي تتعاقب عليها المعاني المختلفة وصورتها الكتابية واحدة، فالأداة "ما" تأتي استفهامية ونافية وشرطية وموصولية وتعجبية وزائدة وغير ذلك، ويكون التفريق بين هذه الأنواع بالتنغيم لدى المتكلم والحس الصوتي لدى المتلقي، وثمة مسائل أخرى كثيرة، للتنغيم أثر كبير في تحديد نوعها، من ذلك تعدد الخبر مع حرف العطف أو من دونه نحو زيدٌ كاتبٌ وشاعر وخطيبٌ، أو زيدٌ كاتب شاعر خطيبٌ[1548]. ومن ذلك قولك لشخص: أنتَ ناجحٌ، فيحتمل الإخبار والاستفهام والتعجب، وذلك حسب التنغيم. وكذلك قولك مثلا لشخص ما: عندك كنزٌ، يحتمل أن يكون إخبارا، أو استفهاما، أو تعجبا، أو استهزاءً... وذلك حسب التنغيم المصاحب لنطق هذه الجملة، وقد

[1545] انظر كيف يتحقق الإيقاع الموسيقي في هذه الظواهر في المرجع السابق نفسه ص28-30.

[1546] ابن جني، الخصائص 2/370-371.

[1547] رابح بومعزة، الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو العربي، دمشق، دار ومؤسسة رسلان، الطبعة الأولى، 2008م، ص154.

[1548] الرهاوي، القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني ص387 -389، 395.

جعلت العرب "التعبير مطابقا بالمعنى لينا وخشونة وحلاوة ومرارة حسبما تريد من المدح والذمّ...واختيار المناسب يكون من عدة جهات: من الصوت ... كما قال لبيد[1549]:

غُـلْـبٌ تشـــــذَّر بالـذُّحـول كـأنهـا جِـنُّ الـبـديّ رواســـــيـا أقـدامُـهـا

اجتمعت خشونة المعنى والصوت والتشبيه"[1550]. أمّا الحسُّ الصوتيُّ للأوزان والإيقاع الداخلي فقد تناولته كتب العروض وموسيقا الشعر نظريا وتطبيقيا على أشعار كثيرة، وكذلك إيقاع السجع والإتباع والمزاوجة وغيرها، ويكفي الإشارة هنا إلى ثلاث نقاط مهمة:

الأولى: أن العرب كانت تميز بحسّها الصوتيّ الشعرَ من الرجز، وصحيحه من سقيمه، وجيده من رديئه، وبين بحور الشعر المختلفة، وينظم الشعراء عليها قبل أن يستنبطها الخليل بقرون.

والثانية: ظاهرة الشعراء الذين ضعف بصرهم أو فُقِد، كما هو حال الأعشى وبشار بن برد، فقد سمي الأعشى بصناجة العرب، وعوّض بحسٍّ صوتيٍّ مرهفٍ عن بصرٍ ضعيف، وكان أكثر شعره صالحا للغناء، وكأنه أولى عناية فائقة لموسيقا الشعر وإيقاعه تعويضا له عن الصورة البصرية.

والثالثة: أن درجات السلم الموسيقي للمعزوفات تتراوح من خمس إلى سبع درجات أو طبقات، في حين أن الأذن تمتلك القدرة على تمييز ما يقرب من (240) نغمة أو درجة موسيقية[1551]، ربما بسبب كثرة الألياف والخلايا العصبية فيها والتي مكنتها من التمييز بين الأصوات الكثيرة وإدراك الفوارق بين الألحان والبحور الشعرية المتعددة.

إن المستويات السابقة للحس الصوتي عند العرب لتدل على رهافته عندهم، وأنهم قد أولوا الصوت عناية فائقة، وقدموه على غيره، وقدموا الموسيقا والإيقاع على ما ترسخ في أذهانهم من نحو ذهني يُبنى الكلامُ وَفقَهُ، كما هو الحال في الإتباع والمزاوجة والتناسب والمجاورة وغيرها مما سنذكره لاحقا، وترسخت نتيجة لذلك في أذهانهم معايير كثيرة للحس الصوتي عندهم.

[1549] إحسان عبّاس، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، الكويت، سلسلة التراث العربي، الطبعة الأولى، 1962، ص317. غلب: غلاظ الأعناق. تشذَّرُ: تتشذّر، بمعنى تتهدَّد وتتوعد. الذُّحول: الأحقاد. البدي: اسم مكان لبني عامر. رواسيا: ثوابت.

[1550] الفراهي، جمهرة البلاغة ص188-189.

[1551] https://2u.pw/hepOG تاريخ الزيارة 2021/9/5

المطلب الثالث: معايير الحس الصوتي:

لم يكن العربي يعتمد على علوم محددة في الحكم على ما يسمعه بالصحة والخطأ أو الحسن والقبح أو الحب والكراهة أو غير ذلك، لكنه كان يعتمد على معيارين أساسيين في ذلك هما الحس الصوتي والذوق، وهما مختلفان كما سبق أن بينتُ، ونتيجة لكثرة سماعه الكلام الفصيح صار للحس الصوتي عنده معايير كثيرة صُقِلَت بها أذنُه، وأُحكِمَ بها حِسُّه الصوتي، وقد تبين لنا منها:

المعيار الأول: المماثلة والمباينة، وهو معيار قياسيٌّ بأبسط صور القياس، وأعني به حمْلَ ما يُسمع على ما سُمِع، فإن وافق الكلامُ ما رُبِّي عليه الحسُّ كان هذا الكلام سليماً فصيحاً، وإلَّا فليس كذلك، وربما كان هذا المعيار من أهم معايير التلحين في القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن الثاني، ولا سيما أن ثمة نصوصا ثابتة يقاس عليها، وهذه النصوص يمثلها الشعر الجاهلي قبل الإسلام وبعده حتى وضع الخليل للعروض، وبعد مجي الإسلام صار القرآن الكريم المعيار الأول للبلاغة والفصاحة والبيان والتأثير، وما زاد ذلك وأكده أن الإسلام نفسه نظام معياري مرنٌ، إذ وضع ضوابط لكل شيءٍ، لكن هذه الضوابط مرنةٌ، ويمكن الخروج عليها عند الضرورات والأعذار، بل إن المرء حتى إن خرج من الإسلام نفسه فلن توصد أبواب التوبة والرجوع أمامه، بل تبقى مشرعة مفتوحة على مصارعها له، ومن يتأمل العربية يجد ثمة توافقا يكاد يكون تاما بين معيارية الإسلام ومعيارية العربية، فكلتاهما معيارية مرنة جدا[1552]. وممّا ينتج عن معيار المماثلة هذا ما يمكن أن نسميه بالنموذج الأمثل الذي يمثل سيفاً ذا حدَّينِ تماماً:

– حدّ الإلهام: وذلك بأن يكون المسموعُ الذي تربَّى عليه الحسُّ الصوتي مُلهِماً للنطق بكلامٍ فصيحٍ بديعٍ، وهذا ما كان سمة غالبة على عصور الفصاحة.

– حدّ التقليد: وذلك عندما يُجعل المسموع مثالاً يُحتذى وغايةً يُسعى إليها، فيصطبغ الكلام بالتقليد من حيث دُري أو لم يُدرَ، وهذا من الضرر بمكانٍ، ذلك أن المقلِّد لن يبلغ المقلَّد مهما حاول؛ ولهذا غلبت هذه السمة على العصور المتأخرة عن عصر الفصاحة، فكان كلامُ كثير من كتابها وأدبائها تقليدا جامدا لا تأثير له. ومن سلبيات هذا النموذج الأمثل:

[1552] قد فصّلنا القول في هذا في بحث مستقل بعنوان "فضل القرآن الكريم في تأليف اللسان العربي المبين".

– إضفاء صفة تشبه القداسة على ذلك النموذج الأمثل المتمثل بالقديم المحاكَى، وتتعاظم هذه الصفة كلما تقادم عهدُهُ.

– برمجة العقل على محاولات تقليد هذا النموذج، ومن ثمَّ فإن الكلام سيبقى دونه؛ لأنه ليس إلا محاكاة أو تقليدا يأسر صاحبه.

إنَّ العقل البشري –والله أعلمُ – مبرمجٌ على التَّعلُّم، بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 3-4]، وقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] وبدليل الواقع والتاريخ الإنساني، والتعلُّم لا يكون من دون أصوات لغوية، كما لا يكون من دون قياس، إما قياس محاكاة للنموذج الأمثل أو قياس مماثلة يتسم بالمرونة والإبداع وفق أصول القياس ودون الإخلال بأركانه، وكلاهما يدخل في معيار المماثلة الآنف الذكر، والحال هنا كحال بحور الشعر، محفوظة بالسليقة لا بالمصطلح، وعليها ينظم الشعر، وبالحسِّ الصوتي يعرف صحيحه من مكسوره، قياسا على الثابت في أذهانهم من أوزان الشعر الجاهلي الذي يعد النموذج الأمثل ومعيارا يحكم به على غيره، وقد سبق أن أوردت قصة إقواء النابغة.

وبناء على معيار المماثلة والمباينة هذا استنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قراءة بعض الصحابة[1553]؛ لأنه لم يسمع بها من قبلُ، ولأنَّها لم تكن مماثلةً لما حفظه، بل مخالفة له، وتروى قصص وأخبار كثيرة حول إنكار بعض الصحابة لقراءات لم يسمعوا بها أو تخطئة بعض الناس في قراءتها للقرآن الكريم، وكل هذا بناء على ما ثبت في قلوبهم وعقولهم من أداء محدد للقرآن الكريم؛ ومن هذا ربما ذهب بعض العلماء –ومنهم د. صبحي الصالح، رحمه الله– إلى أنَّ المقصود بمصطلح "إعراب القرآن" الوارد في الأحاديث والآثار المرويّة عن القرن الأول الهجري = هو ظهور النطق ووضوح المخارج وخلو التلاوة من العيوب"[1554]. ولا شكّ أن هذا اللحن يدرك ويحكم عليه بالحسِّ الصوتيِّ المرهف.

[1553] ينظر: محمد بن إسماعيل صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، اعتنى به محمد زهير الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ، 122/3 برقم (2419)، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بيروت، توزيع دار الكتب العلمية، 1991م، 560/1 برقم (818). والخبر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأه إياها رسول الله ﷺ، فكاد يعجل عليه، ثم أمهله حتى انصرف، ثم لبَّبه بالرداء، فجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: إنني سمعته يقرأ على غير ما أقرأتني. فقال: أرسله. ثم قال: اقرأ. فقرأ، فقال: هكذا أُنزلت. ثم قال لي: اقرأ. فقرأت، فقال: هكذا أنزلت، إنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه.

[1554] الصالح، دراسات في فقه اللغة العربية ص128.

على أنَّ هذه المباينة لا تعد لحناً على كل حال، بل كانت أحيانا دليلا على الغاية في البلاغة والفصاحة والبيان، كما هو حال القرآن الكريم عندما سمعه العرب، إذ وقعوا تحت تأثيره، وسَحرَهم بتركيبه الصوتي المخالف لما اعتادوا على سماعه وتذوقه؛ ولهذا تحدهم ينطقون بعبارات فيه من نحو قول الوليد بن المغيرة: "والله ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعار منِّي، ولا أعلمُ برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقوله لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه"[1555]. ومن هذا النقطة بالذات يمكن تفسير جانب مهم جداً في الإعجاز القرآني، ذلك أن الإيقاع الصوتي لنظمه مختلفٌ تماما عن غيره، متميزٌ منه، وبإمكان أيِّ شخصٍ قياسُ ذلك، فلو أُسمِعَ شخصٌ واحدٌ آيةً مرتلةً وكلاماً بليغاً من غير القرآن، لم يكن قد سمعهما من قبل =لأدرك الفرقَ بينهما، ولأفصح أن الآية تعلو، وأنها أكثر بلاغة وجمالا وتأثيرا، من دون قدرة على بيان التعليل، ولهذا السبب ربما زعم بعض الناس[1556] أن للقرآن لغته الخاصة، وليست العربية، بناء على إدراكهم بالحس الصوتيِّ الفرقَ بينه وبين العربية في كلام أبنائها وبُلغائها من دون قدرة على التعليل وبيان أسباب الترجيح أو الفصاحة، وإن كان الأمر بخلاف ما زعموا، بدليل تصريح القرآن الكريم نفسه بأنه بلسان عربي مبين وقرآن عربي.

المعيار الثاني: حسن الوقع على السمع، وهو معيار مهمٌّ في التصويب والتلحين، والقبول والرفض، والاستحسان والاستقباح؛ لأنه أول ما يقرع الأذن، ويدركُهُ الحسُّ، قبل أن يبحث المرء عن كنه الصوت وحقيقته وسبب صوابه أو لحنه أو حسنه أو قبحه، قال ابن الأثير: "ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمةً لذيذةً كنغمةِ أوتارٍ، وصوتاً مُنكراً كصوتِ حِمارٍ"[1557]. ذلك أنَّ وقْعَ الألفاظ على السمع وتأثيرها يترتب عليهما كثرة الاستعمال وقلته، وخفته وثقله، ثم قبوله أو رفضه، وهذا لا شك جانب مهم للمتلقي في التأثير بمعايير القبول والرفض، قال ابن الأثير: "إن حاسة السمع هي الحاكمة

[1555] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م، 25/24.

[1556] http://www.akhbar-alkhaleej.com/news/article/1200376 تاريخ الزيارة 2021/11/8

[1557] ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، د.ت، 171/1.

الأولى في هذا المقام بحُسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح"[1558]. وقال أيضا في الرد على من قال إن حسنها يأتي من تباعد مخارجها: "فحسنُ الألفاظ إذاً ليس معلوما من تباعد المخارج، وإنما عُلِمَ قبلَ العِلم بتباعُدها، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع"[1559].

ونظرا لأهمية الصوت وتأثيره ربما كان أمر النبي ﷺ بالتغني بالقرآن؛ أي بتحسين الصوت وتجويده؛ وعنايةُ العلماء والقرّاء بتجويده، ولهذه الأهمية أيضاً أولى العربُ الألفاظ عناية فائقة لوقعها على السمع وحملها المعاني، قال ابن جني: "فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهبَ بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذَّ لسامعه فحفظه... ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه"[1560]. ولشدة حسن وقع الألفاظ على السمع كانت تأثيرها أنفذ إلى القلب، قال ابن المقفع: "ما زالت ينابيع حِكمِه تترقرق في معابر الآذان حتى ملأت القلوب عقولا"[1561]. بل كان وقعُها كوقع السحر عينه، قيل: "اللفظ الحسن إحدى النفاثات في العقد"[1562]. يروى أنَّ إسحاق الموصلي دخل على الرشيد، فقال:

سـوامي سـوام المكـثرين تجـملا ... ومـالي - كـمـا قـد تعلمين- قليـلُ
وآمـرة بالـبـخـل قـلـت لهـا اقصـري ... فـذلـك شـيء مـا إليـه سـبيـلُ
وكـيـف أخـاف الـفـقـر أو أحـرم الـغـنى ... ورأي أمـير المـؤمـنـين جمـيـلُ
أرى الـنـاس خـلان الجـواد، ولا أرى ... بخـيـلا لـه في الـعـالمين خـلـيـلُ

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحت معانيه، وقويت أركانه ومبانيه، ولذّ على أفواه القائلين وأسماع السامعين. ثم أمر له بخمسين ألف درهم[1563]. وما هذا إلا نتيجة لحسن الوقع على السمع، والشواهد على حسن الوقع على السمع كثيرة

1558 ابن الأثير، المثل السائر 173/1.
1559 المصدر السابق نفسه 173/1.
1560 ابن جني، الخصائص 215/1-216. وانظر أيضا 218/1 و313.
1561 الأصفهاني، محاضرات الأدباء 61/1.
1562 المصدر السابق نفسه 61/1.
1563 عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1423هـ، ص27.

جدا، فكم من قائل أنقذ نفسه من موت محتم بكلمة، وكم من شاعر سجد بعد سماعه شعرا، يروى أن الفرزدق سجد لما سمع قول لبيد[1564]:

وجلا السُّـــيولَ عن الطلول كـأنهـا زبـرٌ تُجـدُّ مـتـونَهـا أقـلامُـهـا

فقيل له: ما هذا يا أبا فراس؟ فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر[1565]. وكذلك سجد الشعراء لما أنشدهم لبيد قصيدة له وبلغ البيت:

يـعـلـو طـريـقـةَ مـتـنِـهـا مـتـواتـرٌ في ليلـةٍ كفرَ النجومَ غـمـامُـهـا[1566]

ولعل استعداد المتلقي وحاله له أثر كبير في حسن الوقع على السمع ولا سيما إذا كان الكلام مقترنا بالصدق، قال الإمام الفراهي: "لا كلام إلا تحته إرادة ونية من صدق أو كذب... فإنما هو صورة لما في القلب وأثر منه وآية عليه، فهو ذو حياة وروح يحسُّ به السامع ويتأثر له حسب استعداده... ومن هذا الإحساس قالوا: الحقُّ أبلجُ، والباطلُ لجلجُ"[1567]. وقال أيضا: "إن الكلام ليس إلا البلاغ، ولا يتم ذلك إلا بمطابقته بالأصل الأول وبالذي في خيال المتكلم، وبكونه واضح الدلالة أو صائب الإشارة، وبكونه مؤثرا حسب حال المستمع إما لينا سائغا أو خشنا دامغا"[1568]، و"ملاك الأمر إلقاء الكلام بحيث ينطبعُ في قلب السامع"[1569].

المعيار الثالث: الألفة والغرابة، إن الإنسان يستطيع بالحس الصوتي أن يميز الصوت أو الكلام المألوف من الغريب أو الوحشي، فيستحسن الأول ويكره الثاني لثقله على سمعه ونطقه، وعموما فإن السمع ينفر من اللفظ والكلام المتكلف[1570]، فضلا عن الكلام الوحشي المتوعر، وهو "ما كرهه سمعك، وثقل على لسانك النطق به، وذلك في اللفظ عيبان: أحدهما أنه غريب الاستعمال، والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق. وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته

[1564] عبَّاس، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص299.

[1565] الفراهي، جمهرة البلاغة ص251.

[1566] المصدر السابق نفسه ص252.

[1567] المصدر السابق نفسه ص133.

[1568] المصدر السابق نفسه ص135.

[1569] المصدر السابق نفسه ص139.

[1570] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1302هـ، ص65.

وغلاظته"[1571]. ولهذا مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى بأنه لا يتبع حوشي الكلام[1572]. ولعل هذا هو السبب أيضا من النفور من الكلام الأعجمي لكونه غريبا على الأسماع مستهجنا، ولا ينقض ذلك بالكلام الوحشي الذي يستعمله الوحشي من الناس وفق سجيته وفطرته بلا تكلف، فهذا الوحشي بالنسبة إليه مألوف على سمعه وله وقع حسن عليه، قال قدامة بن جعفر: "ولأن من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب له، والتكلف لما يستعمله منه، لكن لعادته وعلى سجية لفظه"[1573].

ولا شك أن الكلام الغريب أو الوحشي يقرع السمع ويستفزه لكن على جهة الكراهة لا القبول والحسن، ومقياس الألفة والغرابة هو كثرة السماع والاستعمال، وهو مقياس نسبيٌّ متفاوت من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وما يكون غريبا عند بعضهم ربما يكون مألوفا عند آخرين، والعكس صحيحٌ، لكن ثمة قدر من الكلام المألوف يشترك به العرب قديما ولا سيما بعد الإسلام. وإن معيار الألفة يمكّن من الحكم على الألفاظ بالفصاحة أو ضدها أو بالألفة أو بالغرابة والوحشية أو بالحسن أو القبح، وعلى الكلام بالبلاغة أو البعد عنها أو باللحن، وعلى المعاني بالجودة أو ضدها.

المعيار الرابع: اطّراد الأنساق؛ أيْ أنَّ الحسَّ الصوتي يجعل بعد كثرة السماع للغةِ ولكلِّ مسموعٍ أنساقاً معينة تنتظم أصواتها فيها وفق نظام خاص، يقول د. إبراهيم أنيس: "والتسلسل الذي نلحظه في درجة الصوت يخضع لنظام خاص يختلف من لغة إلى أخرى، ولا بد من معرفة هذا النظام في اللغة التي يراد تعلمها، وإلا فقد الكلام صبغته الخاصة، وبعُدَ عن النطق الطبيعي الخاص بكل لغة"[1574]. إنَّ هذه الأنساق صارت أنظمة ثابتة للمفردات والتراكيب ومعاييرَ يُحكم بها عليها بالعربية أو العجمة أو بالثقل أو الحسن أو القبح أو الصواب أو الخطأ...، وذلك حسب جريانه وفقها أو مخالفتها، أو تآلف أصوات الكلمات والتراكيب أو تنافرها، ولعل هذا جانب مهم في الإعجاز القرآني؛ إذ كانت له أنساقٌ متميزةٌ عن أنساق الكلام المنثور والشعر المنظوم؛ ولهذا وقف الناس عاجزين عن إنشاء الكلام على مثلها. ومن جانب آخر فقد كانت المعاظلة

[1571] ابن الأثير، المثل السائر 181/1.

[1572] قدامة بن جعفر، نقد الشعر ص65.

[1573] المصدر السابق نفسه ص65.

[1574] إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1975م، ص175.

في الكلام مخلة بالفصاحة مكروهة على الأسماع، وقد مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرا بأنه لا يعاظل في الكلام[1575]؛ وذلك لأن المعاظلة تقوم على التداخل لا على الأنساق المعلومة المألوفة لسمع العربي. ولعل النفور من الكلمات الأعجمية جاء من غرابتها وكونها جارية على غير الأنساق الصوتية التي تطرد عليها الكلمات العربية وأنظمتها التي استقرت في أذهانهم واستعمالهم.

المعيار الخامس: التناسب اللفظي، أي أن يكون بين الأصوات تناغمٌ وانسجامٌ وتلاؤمٌ على المستويات كلها، القصيرة والمتوسطة والطويلة، فإن كانت الكلمات أو التراكيب منسجمة الأصوات قَبِلَها الحسُّ الصوتيُّ واستحسنَها، وإلا استثقلها ورفضها؛ ولهذا رفضت المعاظلة في الكلام، كما رُدَّت الكلمات الرباعية أو الخماسية التي تخلو من حروف الذلاقة والأحرف الشفوية؛ ولهذا جعلها الخليل رحمه الله تعالى مبتدعة وليست من كلام العرب نحو الكشعثج والخضعثج والكشعطج[1576]، ومثلها الهمعخ[1577]؛ وذلك لعدم انسجام أصواتها، قال ابن جني: "إن الحروف في التأليف على ثلاثة أضرب: أحدها تأليف المتباعدة، وهو الأحسن، والآخر تضعيف الحرف نفسه، وهو يلي القسم الأول في الحسن، والآخر: تأليف المتجاورة، وهو دون الاثنين الأولين، فإما رُفض البتة، وإما قلَّ استعماله"[1578]. وقد اعترض ابن الأثير على هذا المعيار بأن "هذه القاعدة قد شذّ عنها شواذّ كثيرة؛ لأنه قد يجيء في المتقارب من المخارج ما هو حسن رائق، ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة... وإذا تراكب منها شيءٌ من الألفاظ جاء حسنا رائقا، فإن قيل (جيش) كانت لفظة محمودة... وكقولنا: ذقته بفمي ...، وكلاهما حسن لا عيب فيه"[1579]. ويرد على ابن الأثير بأن ما ذكره ابن جني ومِن قبلِهِ الخليلُ وسيبويهِ هو الأصلُ العامُّ، ولا يبطله ما شذَّ عنه وإن كثر، وأن المعيار في القبول والرد هو الحسُّ الصوتيُّ.

1575 قدامة بن جعفر، نقد الشعر ص66.

1576 الفراهيدي، العين 52/1.

1577 الفراهيدي، العين 54/1-55، وانظر: عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 11993م، 813/2 وما بعدها.

1578 ابن جني، سر صناعة الإعراب 816/2.

1579 ابن الأثير، المثل السائر 173/1-174.

إنَّ تناسب الأصوات فيما بينها وانسجامها وتلاؤمها بعضها مع بعض إنْ على مستوى الحركة أو الحرف أو الكلمة أو التركيب معيارٌ صوتيٌّ كان له أثر كبير في جعل الكلام يجري وفق سنن معينة حتى إن خالفت الأصل، وقد عُبِّرَ عن التَّناسُبِ فيما بعدُ بمصطلحات عدة، ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

أ. المطابقة: في العدد إفرادا وتثنية وجمعا، وفي التذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، وبين النعت والمنعوت، والفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وغير ذلك كثير.

ب. المشاكلة اللفظية والجر للمجاورة والمزاوجة أو الازدواج والإتباع سواء على مستوى الحركة نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120]، أم الصيغة[1580] نحو قولهم: هَنَأَني ومَرَأَني، هو رِجسٌ نِجسٌ، والحديث: "ارجعن مأزورات غير مأجورات"[1581]. أم على مستوى التركيب، نحو الحديث بإحدى روايتيه: "أنفق بلالا، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا"[1582]. وقد كشف هذا الإتباعُ أنَّ العربَ تقدِّمُ الإيقاعَ أحيانا على القاعدة النحوية والصرفية، فالقاعدة تقتضي في الحديث الأخير رفع بلال؛ لأنه منادى علم، لكنه نُصب ليتناسب مع "إقلالا"، ولعل في هذا ما يدل على أن التناسب عندهم أولى من الإعراب نفسه والقاعدة نفسها.

ت. المماثلة الصوتية: من نحو كسر الحرف السابق لياء المتكلم، وبناء الفعل الماضي على حركة تنسجم صوتيا مع الضمير المتصل به نحو درسُوا وكتبُوا، وغير ذلك كثير، وكذلك صرف بعض الأسماء الممنوعة أو منعها من الصرف للتَّناسُب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4] في قراءة نافع والكسائي وأبي بكر عن عاصم[1583].

[1580] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق عبد اللطيف الخطيب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الطبعة الأولى، 2002م، 6/666-669.

[1581] الألباني، ضعيف الجامع وزياداته ص 111 برقم (773).

[1582] ابن حجر العسقلاني، تقريب البغية بترتيب أحاديث الحلية، تحقيق محمد إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1999م، 3/271 برقم (3761).

[1583] أبو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي، بشير حويجاتي، دمشق، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، 1993م، 6/348.

المعيار السادس: الخفة وكراهة الثقل، وقد تجلّى ذلك في البلاغة كثيرا ولا سيما في الإيجاز واللمحة الدالة و"رب إشارة أبلغ من عبارة"، و"رب صمت عن الإفادة أزيد في الإفادة"، و" رب صمت أفصح من الكلام، ورمز آلم من لذع الحسام" وغير ذلك[1584]، كما تجلى في "إدراج الدليل في طيّ الكلام غير مصرّح به؛ لأن المخاطب إذا أحسَّ بأنك تريد إثبات شيء أخذته النفرة، ولكنه إذا جاء مطويّا أثَّر في قلبه"[1585]. وكيف يدرك هذا الدليل المطوي بغير حس صوتي مرهف وذوق رفيع؟ كما تتجلى الخفة والثقل أيضا في ظواهر العربية وأساليبها كلها، كالحذف لما فيه من تقليلٍ للعناصر المسموعة، والتقديم والتأخير لما فيه من خفة صوتية ونغمة موسيقية، والوصل والاستئناف، ذلك أنهما –وكذلك الوقف والقطع– أنفاسٌ تُحدث الصوت وتؤثر فيه وصلاً أو قطعاً، وطول الكلام وقصره، وكثرة استعماله التي تقتضي الخفة أو قلته بسبب الثقل، وتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف؛ قال سيبويه: "واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء"[1586]. كما تجلى إيثار الخفة في حذف الحركة عند توالي أربع حركات، أو إثباتها عند التقاء الساكنين أو الإتباع، أو حذف الحرف لتوالي الأمثال أو للبناء أو لالتقاء الساكنين أو للخفة، وكراهة توالي الإضافة لثقلها، بل كان سببا للإخلال بالفصاحة والبلاغة، وكذلك البناء والإعراب، والصرف والمنع إنما كان للخفة والثقل، وما ذكر من علل المشابهة أو التركيب أو غيرهما لا يعدو ما يستخفه أو يستثقله النطق، ويستسيغه الحس الصوتي، وغير ذلك كثير جداً. وكذلك الحال في الصرف، فقد كانت الأصول الثلاثية أكثر من الرباعية لخفتها، ولم تكن ثمة أصول خماسية أو سداسية لثقلها وعدم تقبُّل الحس الصوتي لها، وكانت الخفة هي الأساس في أبنية الأسماء والأفعال، فقد دلَّ الاستقراء على أن العرب اقتصرت في استعمالها في أبنية الفعل الثلاثي على ستة أبواب بدلاً من اثني عشر باباً، وأن ما استعملته هو ما كانت الخفة سمة له، وأنها استبعدت ما هو ثقيل منها نحو بناء (فِعُلَ) وغيره. وجعلت الحد الأقصى للفعل ستة أحرف، وللاسم سبعة أحرف، وإنما كان الاسم أطول من الفعل لخفته وثقل الفعل، فالاسم يدل على معنى دون زمن، ويدل الفعل على زمن وحدث، والدلالة المزدوجة حكما أثقل من الدلالة المفردة. ومعيار الخفة نجده في معظم أبواب الصرف، كما في الإعلال نحو صيام وقيام وعيادة وميزان وميعاد وميقات للكلمات: صِوَام، وقِوَام، وعِوَادة، ومِوزان، ومِوعاد، ومِوقات. وفي الإبدال نحو ازدهر واصطبر واتّقى واتّسر للكلمات ازتهر، اصتبر،

[1584] الرهاوي، القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني ص181.

[1585] الفراهي، جمهرة البلاغة ص225.

[1586] سيبويه، الكتاب 20/1.

اوتقى، ايتسر. وفي الإدغام نحو ردَّ، وشدّ والردّ والشدّ للكلمات: ردد، شدد، الردد، الشدد، فضلا عن الإمالة والروم والإشمام، وغير ذلك كثير. كما يتجلى الحس الصوتي بالخفة والثقل في فصاحة الألفاظ وعدمها، قال ابن الأثير عن الوحشي من الألفاظ: "وإنما هو الغريب الذي يقلُّ استعماله، فتارةً يخف على سمعك ولا تجد به كراهة، وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة"[1587].

إن المعايير السابقة متداخلة ومتكاملة، ولا ينفصل بعضها عن بعض، وكل معيار منها يمثل جانبا من جوانب الحس الصوتي، فمثلا قد تكون الكلمة جارية على النسق العربي لها، لكن الحس الصوتي لا يقبلها لعدم انسجام أصواتها وتآلفها أو لثقلها، وقد تكون الأصوات متآلفة لكنها لا تؤدي معنى؛ لأنها لم تجرِ وفق الأنساق الصوتية للكلمة العربية، وهكذا دواليك. ومن ذلك الكلمات المهملة الناتجة عن تقاليب "ع، ذ، ب"، مثلا: عذب، عبذ، ذعب، ذبع، بعذ، بذع، فهي أكثر من المستعملة أحيانا، فالكلمة الأولى "عذب" سهلة اللفظ حسنة الوقع، والكلمات الخمس الأخرى ربما أهملت أو ندر استعمالها لاختلال معيار واحد من معايير قبول الحسّ الصوتي لها، وكذلك تقاليب "ل، ط، ف": لطف، لفط، طلف، طفل، فطل، فلط، وغير ذلك من التقاليب، على أن بعض التقاليب تكون الكلمات المستعملة فيها أكثر من المهملة نحو تقاليب "ح، س، ن": حَسُنَ، حَنِسَ، سَحَنَ، سَنَحَ، نَسَحَ، نَحَسَ، فهي جميعها مستعملة وإن تفاوتت في الكثرة والقلة. جديرٌ بالذكر أن هذه المعايير كانت لها آثار واسعة في العربية وعلومها، وظهرت تحت تأثيرها ظواهرُ وأحكامٌ كثيرة في اللغة والنحو والبلاغة والنقد...، منها الثقل والكراهة والركاكة والإخلال بالفصاحة أو ضعف التأليف...وغيرها، كما تجلّى الحسّ الصوتي ومعاييره في مختلف علوم العربية بمظاهر عدة.

المطلب الرابع: من مظاهر الحس الصوتي في علوم العربية

إن نظرة على علوم العربية المختلفة لتُظهِر منذ الوهلة الأولى أثرَ الحس الصوتي فيها، فبعضها يقوم بكليته عليه كالعروض والأصوات، وبعضها تداخل معها، فأُظهِرت هي وأُهمل هو أو أُعرض عنه، ولم يعطَ نصيبه الذي يستحقه منها، لكن إن أمعنا النظر فيها اتَّضح ذلك الأثرُ بجلاء، وأدركنا صلة الحس الصوتي بمعظم مباحث علوم العربية، وذلك لكون العربية موسيقية، وأهلها آثروا السماع والمشافهة قرونا عديدة، بل ذهب د. محمد كاظم البكاء إلى "أن اللغة العربية قد بنيت على

[1587] ابن الأثير، المثل السائر 180/1.

الحس الصوتي بجميع قواعدها صرفا ونحوا واشتقاقاً"[1588]. وإظهار تلك الصلة بين الحسّ الصوتي وعلوم العربية أمر متعذِّرٌ في بحث كهذا مقيّد بعدد الكلمات والصفحات؛ لأن كلًّا منها يحتاج إلى مباحث كثيرة لتحقيق ذلك، ولهذا سأكتفي هنا بالإشارة السريعة لبعض مظاهره، ولعل الله ييسر لنا التفصيل فيها في غير هذا البحث، ومنها:

1. علم العروض استنبطه الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى اعتمادا على الحسّ الصوتي المرهف عنده، وذلك من خلال الإحساس بالإيقاع والانتظام الموسيقي للحركات والسكنات وما تؤديه من إيقاع داخلي وخارجي، وهذا الانتظام في النظم هو الذي جعل أذن العربي تتفاعل مع إيقاعات محددة سماها الخليل بحورا، وما يزال إلى يومنا هذا وسيظل قائما على الحس الصوتي المكتسب من كثرة المران وطول السماع للشعر.

2. علم الأصوات وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي أيضا بناء على الحس الصوتي عنده، وهو الأساس أيضا في تصنيف الأصوات ووصفها وتحليلها، ولولاه لما أمكن مثلا التفريق بين الأصوات المهموسة والمجهورة، ولا بين الأصوات الشديدة والرخوة والمتوسطة بينهما، ولا بين الأصوات المطبقة والمنفتحة، ولا بين التفخيم والترقيق، وغير ذلك كثير، ومن رحم هذا العلم ولد علم التجويد الذي يعتمد على الحسِّ الصوتي اعتمادا كليا في تقييم الأداء في تلاوة القرآن الكريم.

3. فقه اللغة: وتجلت مظاهر الحس الصوتي فيه في كثير من مباحثه كتعريف اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1589]، والأصوات اللغوية، وقضايا اللحن، واللهجات العربية –والفوارق بينها في معظمها صوتية– وبنية الكلمة والاشتقاق والألفاظ، والدخيل والمعرب، وغير ذلك.

4. البلاغة: تجلت مظاهر الحس الصوتي فيها في حديث البلاغيين عن فصاحة الكلمة المفردة، وفي كثير من فنونها ومسائلها كالإيجاز والتقديم والتأخير والفصل والوصل وغيرها، لكنه كان أكثر وضوحا في بعض فنون البديع ولا سيما تلك التي تقوم على مقابلة الألفاظ كالسجع والجناس والطباق والمقابلة والتناسب والتكرار، كما تجلى في أسلوب الالتفات الذي ينتج عنه تنوُّعٌ في إيقاع الكلام يدفع الملل والسآمة عن أذن السامع ويجدد نشاطها، قال الزمخشري: "إن الكلام إذا نُقِلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ كان ذلك أحسن تطرية، وتجديدا لنشاط السامع، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب

[1588] محمد كاظم البكاء، نظرية الحس الصوتي، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى، 2018م، ص11.

[1589] ابن جني، الخصائص 34/1.

واحد"[1590]. وقال ابن عاشور: "وفي هذا الانتقالِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، ثم الرجوع إلى الغرض تجديدٌ لنشاط الذهن، وتحريكٌ للإصغاء إلى الكلام، وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطوالهم، وسمَّاه السكاكيُّ قِرى الأرواحِ، وجعله من آثار كرَمِ العربِ"[1591].

5. الصرف: أعتقد أن القسم الأعظم من علم الصرف قد قام على الحسّ الصوتي، فهو الأساس في قبول أبنية الأسماء والأفعال المعروفة ورفض الأبنية التي اقتضتها القسمة المنطقية ولم يستسغها الحسُّ الصوتيُّ، وفي المصادر السماعية والقياسية وتعددها لبعض الأفعال، ووقوع الإدغام والإبدال والإعلال بأنواعه الأربعة النقل والقلب والحذف والتسكين، وفي التقاء الساكنين، والإمالة والروم والإشمام، وبناء الفعل للمجهول، والحذف في الحركة أو الحرف كراهة لتوالي الأمثال نحو لتدرسُنَّ ولتدرسِنَّ، وفي النسب كما في النسبة إلى حيفا: حيفيّ وحيفويّ وحيفاويّ، وما كان على مثالها؛ وذلك لقبول الحس الصوتي لها، وكذلك التصغير، فقد كان في أصله غناء للأمهات لأطفالهن وتدليعهم تلذذا بذكر أسمائهم وإظهارا لمحبتهم.

إضافة إلى أن العلة العامة لكل الظواهر الصرفية هي الجنوح إلى الخفة والتخلص من الثقل؛ ولهذا لم يلتزم العرب بقاعدة عامة تنطبق عليها كل الكلمات دون مخالفة، بل ربما كانت الشواذ على كل قاعدة كثيرة جدا، ولا ضابط لها إلا الخفة والثقل، فهذا المعيار هو الأساس في كل اطراد أو مخالفة، وقد ذكرت أمثلة عدة على ذلك في مستويات الحس الصوتي على مستوى الحرف والكلمة، وأعتقد أن كل ما في الصرف يعود إلى الحسّ الصوتي ولا علاقة للذوق به؛ لأنه لا يكون للكلمات المفردة، بل لمعاني التراكيب.

6. النحو: إن المتأمل للنحو العربي يدرك أن الحس الصوتي كان له أثر عظيم فيه، منذ نشأته حتى استوائه على سوقه ونضجه، فبدايات النحو العربي المتمثلة في نقط الإعراب على يد أبي الأسود الدؤلي كانت من الحس الصوتي وأثره في المعاني، وقصته معروفة مشهورة مع كاتب له من بني عبد القيس، كما تجلى ذلك في القصص المختلفة التي تروى عنه ودفعته إلى الشروع في وضع النحو، ومن ذلك قصته المشهورة مع ابنته؛ لذلك قال علي النجدي ناصيف: إنه" ... تعبير ساذج مقتضب

[1590] جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، ضبط أبي عبد الله الداني، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 2006م، 29/1.

[1591] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، 1979م، 103/18-104.

عن مسائل غضة من قانون الحس اللغوي الذي تخضع له العرب إذا تكلمت، وتفهم به المراد إذا سمعت"[1592]. وإذا كان الحس الصوتي أساسيا في النشأة فلا شك أنه كان كذلك في التقعيد والتفريع والتعليل، فمباحث النحو كلها لا تكاد تنفك عن الحسّ الصوتي، فلا تجد بابا من أبوه، ولا جزئية من جزئياته عند تأملها إلا كان للصوت أثر ظاهر فيها، ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

أ. أن الأصل الأول من أصول النحو هو السماع، وهو أساس القياس الأول، إذ يمثلُ ما سُمِع عن العرب النموذجَ الأمثلَ الذي يُقاس عليه كلامُ العرب المتأخرين والمستعربين، وعند تعارض الإيقاع الصوتي والقياس يُقدَّم الإيقاع والتناسب الصوتي، على القاعدة كما ذكرت في معيار التناسب اللفظي.

ب. عدم التزام الأصل النحويّ، وتغليب الفرع على الأصل في كثير من المسائل[1593]، كالتقديم والتأخير والحذف الذي "ينبئ عن كلامٍ سكت عنه المتكلم لرفعته أو شدته أو سعته"[1594]، واختلاف كثير من الأحكام النحوية بسبب الطول والقصر، أو الخفة والثقل، أو كثرة الاستعمال وقلّته، وكل ذلك مما يدرك بالحس الصوتي، ويؤثّر فيه قبولاً أو رفضاً.

ت. المخالفة الصوتية: من نحو فتح ما قبلَ ياء المثنى وكسر نونه، وكسر ما قبل ياء جمع المذكر السالم وفتح نونه، وجر المنوع من الصرف بالفتحة، ونصب جمع المؤنث بالكسرة، وغير ذلك، وذهب د. كاظم البكاء إلى أن المخالفة الصوتية هي "قواعد اختلاف الحركات في النصب بعد التمام على وفق النصب بعد (عشرون درهماً) نحو أقبل زيدٌ مسروراً، وكان الله غفورا ..."[1595].

ث. الاختصار الذي يتجلّى في أبواب ومسائل نحوية كثيرة، بل في كل باب من أبواب النحو، كما في أبواب التثنية والجمع لإغنائهما عن التفصيل، وفي باب العطف لإغناء أحرف العطف من التكرار اللفظي في نحو مررت بزيد وعمرو، وغير ذلك، وفي باب الحذف لطول الكلام أو جوازا أو وجوبا، وفي باب الإضمار؛ أعني استعمال الضمير بدلا من الاسم

[1592] علي النجدي ناصيف، سيبويه إمام النحاة، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، د.ت، ص139.

[1593] ابن جني، الخصائص 300/1.

[1594] الفراهي، جمهرة البلاغة ص223.

[1595] البكاء، نظرية الحس الصوتي ص18.

الظاهر، وهو غاية في الإيجاز والاختصار، ثم إن وظيفة الضمير الأساسية التي هي الربط =ترتبط بالحس الصوتي ارتباطا وثيقا، ذلك أنه يربط بين الأصوات المتعددة لتأدية المعاني المقصودة، وغير ذلك كثير جداً.

ج. التصريح في مواضع كثيرة من أبواب النحو والصرف ومسائله عن تحسين اللفظ أو إصلاحه، فالفاء الزائدة في كلمة "فقط" لتحسين اللفظ، وكذلك الفاء الرابط لجواب "أمَّا" الشرطية التفصيلية إنما أُجِّرت لتحسين اللفظ، وكذلك زيادة الباء في صيغة التعجب "أفعل به"، وغير ذلك كثير. كذلك في باب النداء نجد حديثا مطولا عن الترخيم لكن من زاوية النحو فحسب، مع أن الترخيم هو الترقيق والتليين في الصوت للمنادى العلم، وقد كثر في نداء المحبوبة، أفاطمُ، أبثينُ، يا عزُّ...؛ لما يتطلَّبُه الحديثُ معَها من تلطُّفٍ ورِقّةٍ، وليكون أوقع على السمع وأكثر تأثيرا.

ح. استعمال وسائل التنبيه المتعددة كالاعتراض وأدوات التنبيه والمخالفة من خلال القطع، والحذف والتقديم والتأخير، وكذلك كل مخالفة للأصل، وذلك بقصد تنبيه المتلقي وتحفيزه بها وبالتنويع في الإيقاع الصوتي المفاجئ والمخالف لما هو متوقَّع. وذهب د. كاظم البكاء إلى أن الهدف من المخالفة هو مخافة التكرار وتدارك الرتابة الصوتية بسبب طول الكلام[1596] كما في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162]، وقول الخرنق بنت بدر[1597]:

لا يَبعَدَن قَومي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وَآفَةُ الجُزرِ

النازِلونَ بِكُلِّ مُعتَرَكٍ ... وَالطَيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزرِ

الضارِبونَ بِحَومَةٍ نَزَلَت ... وَالطاعِنونَ بِأَذرُعٍ شُعُرِ

وَالخالِطينَ لُجَينَهُم بِنُضارِهِم ... وَذَوي الغِنى مِنهُم بِذي الفَقرِ

[1596] البكاء، نظرية الحس الصوتي ص14.

[1597] أبو عمرو بن العلاء، ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1990م، ص42-45. والاستشهاد بالأبيات والآية الكريمة على قطع التابع (المقيمين) و(الخالطين) بالنصب مع أن المعطوف عليه مرفوع فيهما، ولهذا القطع أثر في كسر الرتابة الصوتية.

لكن ربما ينطبق هذا على ما ذكره من آيات طويلة، لكنه ليس كذلك على الشواهد القصيرة، وهي كثيرة جدا، منها قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:4-5]. وثمة منبهات أخرى كثيرة تستثير الحس الصوتي عند السامع، "منها الاستفهام لينتبه السامع، ومنها السكوت ليستريح، ومنها بعض الحذف ليصير السامع متكلما في نفسه فيُعمل عقله، ومنها منبّهات الرغبة والنفْرة، ومنها الالتفات لينتبه بما أحس به من تجديد، ومنه التمثيل ليشاهد محسوسا فينتبه من رقدته، ومنها كل تبدُّل من الحركات والالتفات ومهيجات الضحك والحزن، فهذه الأمور مع فوائدها الأخر أسباب لانتباه السامع"[1598] ولعدم ضياع كلام المتكلم.

إن مظاهر الحس الصوتي في النحو العربي وعلوم العربية الأخرى كالعروض والأصوات والصرف والبلاغة التي ذكرتها هنا ليست إلا إشارات سريعة للتنبيه على أهمية الحس الصوتي فيها، ودعوة إلى دراسته في تلك العلوم دراسة علمية دقيقة شاملة لكلياته وجزئياته ولعلها -إن أنجزت- ستغير كثيرا من المفاهيم والمعايير أو تفتح السبل أمام معايير جديدة تيسر علوم العربية وتسهل دراستها.

خاتمة البحث ونتائجه:

تعرفنا في البحث الحسَّ الصوتيَّ مفهوما وتربية، ومستوياته، وأبرز معاييره التي استطعت استنباطها، وبعضا من مظاهره في بعض علوم العربية، ولا شك أن ثمة أمورا أخرى في كل مبحث لم تتضح لي، وأن الشواهد على ما ذكرت أكثر من أن تحصى ليس هذا موضع حصرها، وليس ذلك هدفا للبحث الذي آمل أن يكمل جهود السابقين ويمهد للباحثين الآخرين الطريق لاستنباط جوانب أخرى، والتعديل على ما ذكرت، وهكذا هي الحياة في جل شؤونها فضلا عن العلم الذي لا يعرف الكلمة الأخيرة في أي ميدان من ميادينه. ويمكن إجمال أهم النتائج التي توصل إليها البحث بالآتي:

1. أن الحس الصوتي ملكة عامة عند جميع البشر عدا الصم، وله وسائل تربية وتنمية كثيرة، أهمها كثرة السماع والمران.
2. فرق البحث بين الحس الصوتي والوعي الصوتي، وبين الحس الصوتي والذوق.
3. أن الحس الصوتي عند العرب تجلَّى على مستويات الحركة والحرف والكلمة والتركيب.

[1598] الفراهي، جمهرة البلاغة ص222.

4. أن الحس الصوتي كانت له معايير عدة، أبرزها المماثلة والمباينة وحسن الوقع على السمع والانسجام والتلاؤم والتناسب واطِّراد الأنساق والخفة والثقل وغيرها.

5. أن للحسّ الصوتي ارتباطا بكثير من ظواهر العربية كالإعراب والتقديم والتأخير والحذف والتزام الإعراب ومخالفته من أجل التناسب والإيقاع وغير ذلك.

6. أن الحس الصوتي قد انبثقت عنه مصطلحات عدة في علوم العربية المختلفة كالتناسب والخفة والثقل والمباينة والمخالفة والمطابقة والمشاكلة والإتباع والمزاوجة والازدواج وغير ذلك.

7. أن مظاهر الحس الصوتي تتجلى في معظم علوم العربية كالعروض والأصوات وفقه اللغة والبلاغة والصرف والنحو، وأن نشأة بعضها كانت نتيجة للحس الصوتي.

8. أن النحو والصرف ارتبطا بالحس الصوتي في السماع الذي يعدُّ الأصل الأول من أصولهما وفي القياس ومعظم الأبواب والمسائل.

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، ضياء الدين: ***المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر***، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، د.ت.
- أحمد، السيد علي سيد، فائقة بدر: ***الإدراك الحسي البصري والسمعي***، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 2001م.
- الأصفهاني، الراغب: ***محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء***، بيروت، دار الأرقم، الطبعة الأولى، 1420هـ.
- الألباني، محمد ناصر الدين: ***ضعيف الجامع الصغير وزياداته***، دمشق، بيروت، د.ت.
- الأنصاري، ابن هشام: ***مغني اللبيب عن كتب الأعاريب***، (ج6)، تحقيق عبد اللطيف الخطيب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الطبعة الأولى، 2002م.
- أنيس، إبراهيم: ***الأصوات اللغوية***، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1975م.

- أنيس، إبراهيم: ***دلالة الألفاظ***، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1984م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: ***صحيح البخاري (الجامع الصحيح)***، اعتنى به محمد زهير الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- البكاء، محمد كاظم: ***نظرية الحس الصوتي لتعليم النحو العربي***، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 2018م.
- بو معزة، رابح: ***الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو العربي***، دمشق، دار ومؤسسة رسلان، الطبعة الأولى، 2008م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: ***المحاسن والأضداد***، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1423هـ.
- ابن جعفر، قدامة: ***نقد الشعر***، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1302هـ.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: ***الخصائص***، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، د.ت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: ***سر صناعة الإعراب***، تحقيق حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1993م.
- ابن حنبل، أحمد: ***مسند الإمام أحمد***، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: ***مقدمة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)***، تحقيق إبراهيم شبّوح، إحسان عبّاس، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى، 2006م.
- الخولي، محمد علي: ***علم الدلالة "علم المعنى"***، الأردن، دار الفلاح للنشر، الطبعة الأولى، 2001م.
- الدينوري، ابن قتيبة: ***الشعر والشعراء***، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، 1982م.
- الرهاوي، محمد خالد: ***القاعدة النحوية في ضوء علم المعاني***، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، الطبعة الأولى، 2020م.
- الزمخشري، جار الله محمود: ***الكشاف عن حقائق التنزيل***، ضبط أبي عبد الله الداني، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 2006م.

- السيرافي، أبو سعيد: ***أخبار النحويين البصريين***، تحقيق طه الزيني، محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، 1966م.
- سيبويه، أبو بشر: ***الكتاب***، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، 2009م.
- الصالح، صبحي: ***دراسات في فقه اللغة العربية***، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة 16، 2004م.
- الطبري، محمد بن جرير: ***جامع البيان في تأويل القرآن***، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر: ***التحرير والتنوير***، تونس، دار سحنون، 1997م.
- عبّاس، إحسان: ***شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري***، الكويت، سلسلة التراث العربي، الطبعة الأولى، 1962م.
- العسقلاني، ابن حجر: ***فتح الباري شرح صحيح البخاري***، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ.
- العسقلاني، ابن حجر: ***تقريب البغية بترتيب أحاديث الحلية***، تحقيق محمد إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1999م.
- ابن العلاء، أبو عمرو: ***ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان***، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1990م.
- العقاد، عباس محمود: ***اللغة الشاعرة***، القاهرة، دار نهضة مصر، 1995م.
- علي، جواد: ***المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام***، بيروت، دار الساقي، الطبعة الرابعة، 2001م.
- الفارسي، أبو علي: ***الحجة للقراء السبعة***، تحقيق بدر الدين قهوجي، بشير حويجاتي، دمشق، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، 1993م.
- الفراهي، عبد الحميد: ***جمهرة البلاغة***، تحقيق محمد خالد الرهاوي، عامر الجراح، إسطنبول، دار سنابل، الطبعة الأولى، 2019م.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: ***العين***، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، القاهرة، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، د.ت.
- المرزُباني، محمد بن عمران: ***الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء***، القاهرة، المطبعة السلفية، 1343هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: ***لسان العرب***، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 1414هـ.
- ناصيف، علي النجدي: ***سيبويه إمام النحاة***، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، د.ت.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج: ***صحيح مسلم***، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بيروت، توزيع دار الكتب العلمية، الطبعة، 1991م.

أبحاث المجلات:

- الفلاج، نوال: ***أفعال الحركة الاضطرابية في القرآن الكريم دراسة دلالية نحوية***، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر، المجلد (32)، العدد (7)، 2016.